رواية

الأعراف

محمد علاء الدين

نوفل

رواية

الأعراف

محمد علاء الدين

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2019 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© **هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2019**
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: © **Lisa Howarth / Trevillion Images**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-276-9
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-277-6

إلى يوفيتا، مجدّداً.

1

قالت لي أمّي، راقدةً على فراشها، إنّها كانت قطّة بلديّة منذ أربعين عاماً.

نظرتْ إليّ، ونظرتُ إليها، أكمَلت أنّها تتذكّر هذا اليوم بدقّة؛ كانت نائمةً على الأريكة التي تحبّ في غرفة سيّدتها مها، استيقظت بعد غفوة قصيرة لتجد أنّ لها ساقين من سيقان البشر، وعينين تريان كثيراً جدّاً من الألوان. وقبل أن تدرك ما الذي حدث لها بالضبط، كانت مها تفتح الباب حاملةً طبقاً من الحليب.

أتذكّر كلّ شيء بوضوح، تقول أمّي. نظرَت إليها مها بمفاجأة تحوّلت إلى فزع، فتهاوى طبق الحليب من يدها متكسّراً على البلاط. سحبت الباب وأغلقته بعنف. جفلت أمّي متراجعةً من هذا الفعل العنيف، ثمّ هداها أنفها لرائحة الحليب اللذيذ. قعدت، مدّت طرف لسانها لاعقةً سطح الحليب الذي تعكّر ببعض التراب. شعرت بألم لم تعهده في ركبتيها، وتناهى لسمعها صوت تحطّم ما.

ثمّ ساد صمت.

لم تستمتع أمّي بمذاق الحليب الممتزج بالتراب، هو أيضاً شعور لم تعهده. اعتدلت، نظرت إلى نفسها في المرآة. رأت شابّة جميلة تنظر إليها، أجفلت، وعندما أجفلت أجفلت الجميلة في المرآة أيضاً. هي بغير رائحة، قالت أمّي لنفسها. اقتربت من المرأة بحذر، ولاحظت انعكاس الحركات. لمست بيدها يد الصورة، وأخذت تتأمّل جسداً عارياً. كانت هي

رائحتها. شعرت ببرد غير معهود، وقادها عقلها إلى فتح باب خزانة قريبة. ارتدت ما يمكنها ارتداؤه، كما اعتقدت.

استخدمت أصابعها للمرّة الأولى: إبهام.

وفي المرّة الثانية، أدارت أكرة الباب، انفتح. أطلّت برأسها بحذر، متشمّمة ما حولها. ريح تدخل من ثقب في زجاج النافذة على يسارها. اقتربت بحذر. بعض من الدماء القليلة على حواف الزجاج، لها رائحة تعرفها. شتّت الجوع أفكارها كالعادة. وعلى منضدة في الصالة كانت تجلس وتأكل وتشرب، وعندما شعرت بالامتلاء استرخت، وبدأت تفكّر في النوم، لكنّ جرس التليفون انتزع منها هذه الفكرة. جرس طويل بدا لأذنيها أقلّ إزعاجاً بقليل ممّا تعوّدت عليه. اقتربت بتردّد من جسد التليفون الأسود، ظلّت تنظر له محنيةً رأسها، وربّما أذنيها، وأدركت أن لا ذيل لها لتحرّكه. أخيراً التقطت السمّاعة، كما أخبرتها ذكرياتها، ثمّ حصلت المعجزة.

تكلّمتُ! هتفَت بي.

ابتسمتُ.

قلتُ آلو. قلتُها فعلاً. بدا الصوت عجيباً وغريباً، سمعتُ رنّةً مؤلمة في أذنيّ، وضعتُ السمّاعة.

لقد يئس أحدهم من ردّك يا أمّي. ربّما في المرّات اللاحقة كنتِ أفضل كثيراً.

نعم، كانت أفضل كثيراً، خصوصاً مع صديقاتي اللواتي كنت أشتهي، وكانت أفضل بعد مع اللواتي أردتُ صرفهنّ.

خطَت فآلمتها قدمها. تزمجر. تفهم جدوى الأحذية فتدسّ قدميها في حذاء خفيف في الغرفة التي أتت منها، قالت لي إنّها كانت المعجزة الأخرى؛ يمكنها أن تدير الباب وتخرج. يمكنها أن تخطو إلى العالم.

وكيف كان؟!

كان عظيماً. مشيتُ حتّى شعرتُ بالتعب، عقلي يخبرني بشيء ثم يرجع فيه، تتذبذب الأفكار لكنّها، ببطء، كانت تستقرّ. عندما شعرت مجدّداً

بالجوع كنت سأدخل هذا المطعم، على ناصية الشارع العريض، أتتذكّره؟!

أقول بفرحة نعم.

كنتُ سأدخل لآكل، ثمّ يخبرني عقلي أنّني لا أملك نقوداً، وعندما أسأل نفسي عن النقود، يخبرني عقلي أنّها تلك الأوراق التي تمدّ مها يدها بها للناس وهي واقفة أمام باب، أو خلف طاولة. بدأتُ حتّى، في نفس اليوم، بالتحكّم في الجوع الذي يستبدّ بي كلّ ساعة، أو كلّما شممت رائحة شهيّة.

ترفع أنفها في الهواء أمامي فجأة، ثمّ تقول إنّهم قد طهوا دجاجاً مجدّداً. أكره هذا الدجاج. أنظر إليها زامّاً شفتيّ، تباغتني؛ كنت أشمّ رائحة سجائرك دوماً، لا تنكر.

لن أنكر.

تنظر إليّ وتبتسم، يبدأ جفناها بالاهتزاز، تسألني قبل أن تغيب في دوّامة جديدة لِمَ كان اسم عائلة أبي القط؟!

أراقبها تغيب رويداً رويداً. أعتدل واقفاً وأمسك يدها لأقبّلها برفق. أرجعها لجوار جسدها برفق، وأنسلّ بخفّة إلى باب الغرفة، على أطراف أصابعي. في الأسفل يقابلني الدكتور أحمد صدفة في الممرّ الأبيض ذي الأنوار الساطعة. يسألني عن الأخبار، كيف كانت جلسة اليوم مع أمّي؟! أقول له إنّها قد أخبرتني بحكاية جديدة عجيبة، ولكنّها تتذكّر اسم عائلة أبي. جيّد، يهزّ رأسه ويبتسم ويذكّرني بزيارة الحسابات قبل أن يمضي. أمشي ببطء إلى الغرفة، أمدّ يدي بالنقود للموظّف الأصلع ذي النظّارة بلا إطار، والياقة البيضاء. أتسلّم الفاتورة، وفي أعلاها اسم أمّي: مها عبد الحكيم.

كنت أقسّم حياتي لثلاث سنوات سعيدات، وثلاث عجاف.

في السعيدات كنت معها، وفي بداية الثلاث الأخريات لم تكن هناك. كانت أمّي تحبّها، وكان أبي يحبّها، وكان أصدقائي يحبّونها، وكنت أنا، بالطبع، أحبّها. كنت جالساً أمام الطبيب ذي الفم المتعجّل، هذا الفم الذي نطق بالتشخيص الذي أنهى كل شيء. تشاجرت معه. أنا أشخّص المريض فور رؤيته! قال لي.

كان مرضاً مخيفاً، وكانت هي تخاف من مرض أعنف. ستّ علب من الأدوية في مواقيت مختلفة من اليوم؛ هذا للمزاج، هذا لتثبيت المزاج، هذا لتلافي أثر الدواء الأوّل، هذه حقن تطرد الأوهام وتطارد الخزعبلات، هذا وهذا ثمّ هذا فهذا. كانت مدّة العلاج شهراً ونصف الشهر، وكانت هي تترجّاني لنذهب إلى طبيب آخر، وكنت أنا أرفض؛ لست مجنوناً، أعرف هذا. هي من أنقذت حياتي؛ هي من ذهبت لأبي وأمّي حاملةً سكاكين المطبخ باكيةً: أخاف، قالت. أتيا إلى البيت، أقنعاني، أو أرغماني، تعالَ إلى المنزل عندنا. قلت غداً. أصرّت أمّي على أن تأخدها معها، قالت لي بحسم إنّها تخاف عليها. كنت أفيق من دوار غير مفهوم لصحوة مشوّشة قليلة لكنّها كافية، في الصباح، بعد ليل وحيد لم أعرف إن كنت نمت فيه أم لا، أخذت بعضاً من ملابسي وذهبت إلى البيت، غادرت هي إلى منزلنا بعد وصولي بقليل. أعطوني شيئاً لم أفهمه ثمّ غبت في نوم قلق. صحوت هائجاً، حاولوا أن يهدّئوني، أمسك أخي الأصغر بتلابيبي، ثبّتني وأنا أصرخ باسمها، وأقول ما الذي سيفعلونه بها، سيؤذونها، سيسلّمونها للسلطات، هم يهابون الطغاة ومن أجلهم سيفعلون كلّ شيء، يجبرون أنفسهم على الشعور بمحبّتهم فكيف لن يؤذوا امرأة ابنهم. هكذا كنت في دوّامتي.

لم يتحمّل أبي، أو دعنا نقُل بصراحة؛ مضى بعيداً. تركني حتّى استقرّت أحوالي. صحيح أنّه أتى بعدها بليلتين، لم تعرف أمّي أين قضاهما، ليصطحبني إلى القهوة لأشرب شاياً ساخناً، كنوع من تخفيف سجن مطبق فُرض عليّ، لكنّني ما زلت أتذكّر: هو لم يكن هناك.

في اليوم الثاني كنت لدى الطبيب، لقد عالج أختاً لجدّتي من قبل. هو

يعرف مثل هذه الأشياء، يقولون.

في الأسبوع الثاني تشاجرت معه، هي ترمقني بيأس وتصمت. ارتفع حاجبها قليلاً عندما رضخ الطبيب وكتب لي دواءً جديداً. هو طبيب لا يمكن الوثوق به، قالت لأمّي. وفي الأسبوع الثالث، صار الدواء الجديد يتحدّث، كنت أخبرها بحماسة عن أنّنا في أحسن سني عمرنا، كيف أنّنا لا بدّ لنا بعد سنين ثلاث من إنجاب طفل إلى هذا العالم البديع. كانت هي ترمقني وتصمت، جالسين فوق كرسيّ المقهى الذي صارت تصطحبني إليه عوضاً عن أبي. كانت تزورني كلّ يوم في بيت أهلي، حاملةً إليّ سلامات والديها، وبعد السلامات طلبات بأن أذهب إلى طبيب آخر، وكنت أردّ بأنّني بخير، يضايقني ألّا أبلغ الذورة حين نتخفّف من ملابسنا، عواقب الدواء السحريّ، ولكنّي بخير.

في يوم بعد هذا بقليل، بدأت تأتي كلّ يومين، ثمّ كلّ ثلاثة، ثمّ صارت لا تُجيب على الهاتف، وصارت تبكي لأصدقاء مشتركين، عاد لتدخين الحشيش، قالت، وكانت محقّة. قبلها، أبلغتني أنّها ستترك البيت لفترة، ويُستحسن أن نوفّر ثمن الإيجار. أنا مُعدَم، تركت عملي منذ سنة، قلت لها إنّهم يترصّدونني، لن ينسوا أنّني كنت في الميدان الكبير. كانت تنظر إليّ وتصمت، لم تكتشف أمّي الأمر إلّا بعد انهياري. أتيت لأحمل أشيائي مع أخي، جاءت وجلست. لم تكن أشياؤها هناك على أيّ حال. وما بين الغضب والمحبّة، كنت أدرك أنّها على حق، أنا حصان مريض، أنا لا رجاء منّي. في مرّة ردّت، شددنا أطراف الحديث إلى أقصاه، قالت لي بلا مواربة إنّ الرجل الذي تزوّجت وأحبّت قد مات. صمتُّ.

كانت مدينتي في خضمّ حرب ما بين قوانين مختلفة للوجود وقوانين مختلفة للسرقة، وكنت أنا في خضمّ حرب مع نفسي، مع كلّ حلم رأيته بينما أنا في ميدان بعيد، وكلّ حلم تبادلته معها، كان عالمي ينهار بسرعة لم أتخيّلها، حاولت أن أتماسك، لكن عندما هاتفني والدها مخبِراً إيّاي بضرورات كثيرة، كان من ضمنها أن يذهب كُلٌّ في حال سبيله، وجدت نفسي على سريري القديم الجديد في بيت والدي، أنظر إلى

الحائط، ولا أجد هذه الأشكال التي كانت تلتقطها عيناي في تشققات الطلاء القديم. بقيت هناك، وصرت شاحباً. تولّت أمّي الأمر، بُرّئتُ من كلّ شيء مقابل ورقة تنهي كلّ شيء. لم يحبّني والداها يوماً. كنت الفاشل الذي أُجبرا على تزويجها إيّاه، في شقّة مؤجّرة ومرتّب ضئيل.

حقيرة..

قالتها أمّي بغضب مكتوم، انفجر وهي تمضي في الكلام؛ أيّ حبٍّ هذا الذي كانت تظهره؟! أيّ تمثيل متقن هذا؟! كنت أقول لها إنّها على حق، كانت تهتف بي أن أصمت. أصمت كما يصمت أبي.

هي ذئبة، ذئبة حقيرة. لقد كنت أعرف من البداية، ولكنّي قلت إنّ الحياة تغيّر. تقول لي فجأة بعد صمت طويل.

لم أفهم ما تقصده، ولم أفهم هذه السبّة، لم تكن في قاموس طويل عريض من الصفات الحيوانيّة للنساء اللاتي تغضب منهنّ. لم أفهم، لكنّني الآن أتأمّل كلّ ما جرى.

أسابيع أخرى وفُصلت، وأسابيع أبعد ووصلني خبر سفرها، وظائف الخليج الفاخرة لامرأة مصريّة جميلة. صرت أشكوها لأصدقاء يتباعدون. صرت أشكوها في يوم وأحاول كسب وصالها في يوم آخر، إلى أن أقنعتني أيّامي بأن أنسى، وقبل أن أنسى، بأن أصمت. هكذا عبرت ثلاث سنوات عجاف، كنت مفلساً، ومهجوراً، ومجنوناً، ووحيداً، وآبقاً.

وعندما أتت السنوات الثلاث السعيدات، عندما أقلعت عن الحشيش، وبدأت بالابتسام للنسوة مجدّداً، وبالاستحمام المنتظم، وبالعمل الحرّ البسيط الذي يؤتي مالاً لا بأس به، وبالنظر إلى كوابيس الماضي كعلامات على صعوبة انتصار مؤزّر، وعندما كنت في الاسكندرية، أستعدّ لطقس حبّ مع امرأة شهيّة، هاتفني أخي.

لم تعد أمّك تتذكّرني. قال.

انفتح باب الشقّة، ووراء باب الشقة كانت أمّ سيّدتها مها، رشيدة. تيتة رشيدة، قلت أنا.

نظرت إليّ مبتسمة. قالت إنّ رشيدة قد حيّتها ومضت في طريقها حاملة أوراقها. بعد قليل كانت تسأل: أين ذهبت بوسي؟!

كانت بوسي هي القطّة، ودّت أن تجيب بأنّها هنا. لحظات ولفت نظر رشيدة الزجاج المكسور، وتجلّطات الدم البسيطة. سألت نفسها في تعجّب ما هذا؟ زاد عجبها عندما رأت الطبق المكسور والحليب السائل على الأرض. سألت أمّي التي قالت إنّها قد صحت من النوم لتجد كلّ هذا يحدث. هي لم تكذب، حرفيّاً. وبينما هم في ردهة المنزل، في المساء، أخبرت رشيدة زوجها ما تظنّه حدث، نظر إليها الزوج بغير فهم. قفزت عبر الزجاج؟! كرّر ما قالت ببطء.

أخبرته رشيدة أنّها قد نزلت لتتفقّد الأرض تحت النافذة، لا شيء. ثمّ مضت لتخبره عن طبق الحليب الذي نظّفت آثاره، أشاحت بيدها حيث أمّي، وقالت إنّها الوحيدة التي تفعل كلّ شيء في المنزل، لها ابنة خاملة لم تذهب حتّى اليوم إلى الجامعة. كانت رشيدة متعجّبة لخمول ابنتها تجاه موضوع القطّة، وهي من اهتمّت بها دوماً. كانت أمّي مشغولة بتجريب عينيها مع التلفاز ذي اللونين، وكأنّ عينيها القديمتين رجعتا بشكل أو بآخر، لكن بمزجٍ ما بين عالم قديم وعالم جديد. تقول لي إنّها تتذكّر الفرش الأخضر الذي كان يرقد فوق البوفيه الخشبيّ البنّي اللامع بجوار المسطّح ذي اللونين. الاثنان في آن واحد.

في المساء، لم تستطع التكوّر حول نفسها، اختارت وضع الجنين الأقرب لما تعهد، ونامت.

تتلقّى مكالمات صديقاتها وتخرج معهنّ في جوارهنّ الهادئ، بعيداً عن القاهرة المزدحمة. تصمت كثيراً وتشرد كثيراً، وعقلها يرتّب ما كان وما هو كائن. بعضهنّ تعجّبن من صمت مفاجئ سيلازم أمّي حتّى رقودها في فراشها أمامي، حين قرّرت فجأة أن تفتح فمها وتقول ما تقوله الآن. في هذه الأثناء، كانت قد فهمت السر. الأنف دليل الغريزة، وعقلها

لم يتمكّن من مسح كلّ ما كانت عليه. كانت تتشمّمهم من بعيد، تدرك ما كانوه. هم أيضاً. كانوا ينظرون إليها وتنظر إليهم.

كانوا دوماً أذكياء، تقول لي. هم من فارقوا حالاً إلى حال. البقيّة التي جاءت إلى الدنيا بوجه واحد لم يملكوا غير التحلّق حولهم، كالفراشات حول نار. في الشوارع، في المقاهي، في السهرات، وفي الجرائد وفي التلفاز. على خشبة المسرح وعلى مقاعد الجامعات.

هكذا اشتمّت رائحته. كان طويلاً ووسيماً، كما يليق بحصان. عندما كان ينطق المصطلحات بفرنسيّة مرهفة كان قلبها يرقّ: الأصوات.

الأصوات والروائح.

وعندما اقتربَت منه بعد المحاضرة عرفت أنّه فوجئ. رائحتها الجديدة.

تقول لي أمّي إنّ الناس نسوا الروائح، الكتابة لا رائحة لها، التلفاز لا رائحة له. شردت وقالت لي، حتّى قنوات الطبخ الجديدة هذه. حتّى الطعام صار بلونه.

العين تأكل قبل الفم. قلت لها. أشاحت ببصرها. هذا ما يقوله الناس. قالت.

لم يكن الأستاذ صقراً أو نسراً، قطعاً لم يكن بومة، هكذا، لم يشارك الناس ولعهم بالبصر. تجدهم في المسرح أو السينما. هكذا تخبرني. لكنّه كان مثلها، ولأنّه كان مثلها، لم يبالِ بقميص نوم أحمر، فقط همس في أذنيها برفق، ألّا تضع عطراً. يريد أن يشتمّ من هي، بلا تلك الخدع التي طوّرها الناس لأنوف ضامرة. يتضرّج وجهي. أصمت. يتملّكها مرح مفاجئ. تقول لي إنّه لا معنى للخجل الآن، لقد أخبرتك بسرّي. تقفز فوق التفاصيل برشاقة، تقول إنّها قد ابتعدت بعد سنة. الهررة لا تجيد التعامل مع الأحصنة. نعم، تعوّدنا جميعاً أن نعيش معاً، حتّى نحن والكلاب، كلّنا معاً في ذات المكان، لكنّ العشق شيء آخر. عندها برز أبوك. كبّلني وأخذني، اختطفني كما يليق بقط. وقد كان أبوك إلهاً لها في يوم من الأيّام.

أوَفي هذا العالم أنواع متنافرة أيضاً؟! لا يجوز لهرّة حبّ حصان؟!

قلتها وأنا أداعبها. صمتت وابتسمت. أكملتُ أنّ هذا ضدّ كلّ ما علّمتني إيّاه. أساعدها أن ترشف بعضاً من الماء كما طلبت منّي، ترجع ظهرها على مخدّتها. تتنهّد. تقول وقد حسبتُ أنّها ستصمت؛ هي السنّ، غالباً، تجعلنا نفكّر في ما جرى بنحو لم نتخيّله آنذاك. الحياة القصيرة قد تكون نعمة، نبقى كما نحن في أمان التعوّد. واحد منّا قد ابتكر دواءً يطيل عمر الناس بثلاثين عاماً، ونحن أنفسنا قد أُطيلت أعمارنا كأعمار البشر. متعة فوق متعة حين تكون صغيراً. وتعب فوق تعب حين تكون مثلي. حين تتوق لقول السرّ. في شبابنا نحن من نمارس اللعب البرّي الذي افتقدناه بتبدّل الحال، فيسمّيه الناس فنّاً. يفخرون بنا، نحن من جعلنا الناس ناساً. وفي شيخوختنا، وفي موات الجسد وضمور الحواسّ، يتغلّب عقل بشريّ بارد، عقل لا يفقه شيئاً عن أيّ شيء. الموضوع ساخر؛ نتحوّل نحن إلى ضحايا التلاعب الذي لطالما مارسناه على الناس. نصير ناساً، أخيراً، فقط قبل أن نكون خضاراً أو لحماً. أتعلم أنّني، في البداية، كنت أعرف مذاق بعضهم في طماطمي؟ في مرقة اللحم التي تسيل من طبق تعوّدت على احتمال سخونته؟ سيذهبون إلى المجرور قبل أن يكونوا أشياء أخرى. لكن بإمكانك دوماً التعرّف إليهم.

تنظر إلى طبق الطعام أمامها، تقول إنّها الآن لا تستطيع، في السابق جعلت نفسها تنسى، ولكنّها الآن لا تستطيع. نعمة. نعمة كبيرة. الشيخوخة جيّدة أيضاً. لا؟! لم أستطع الردّ. اكتفيت بالابتسام. لكنّني لن أنسى أبداً مذاق أخيك البكر. قالوا حينها في المستشفى إنّه قد اختفى، ولم يتخيّلوا الحقيقة. قالت في حزن.

تجمّدت ابتسامتي، وارتعشتُ.

كان أبي يتظاهر دائماً بأنّه يقرأ الجرائد، لكنّني أيقنت أنّه لا يفعل.

يمكنك أن تعبر به جالساً في الشرفة في أيّام الجمعة التي دوماً ما أتذكّرها مشمسة، فارداً صحيفةً ما بين يديه في محاذاة صدره، لكنّ الصفحات لا تنقلب أبداً، أو هي تنقلب بعد دقائق طويلة ثقيلة من الجمود والصمت. كان ظهره هو ما يواجهني بينما أعبر في طريقي. كنت أتخيّل أنّه يولي وجهه لشمس الساطعة مغمضاً عينيه.

كانت حياة أبي كنهر متّصل، نهر هادئ لا يزعج واديه بفيضان ولا بنقصان، المحيط الهادئ كما سمّيته بيني وبين نفسي، ثمّ بيني وبين أخي الأصغر الذي لم يقدّر التشبيه كثيراً. لا أتذكّر أنّه في يوم زعق في وجهي، أو أنّني سمعت له شجاراً مع أحدهم، حتّى أمّي. كان قليل الكلام، قليل الحركة، على الأقلّ في المنزل. كانت أمّي هي من تتولّى أمرنا، أمّا أبي فهو من يشاركنا الطعام في أيّام رمضان التي نحاول فيها أن نلتفّ حول مائدة واحدة، أمّا في العادة، فكلّ منّا يأكل وينام ويمشي ويفكّر بمفرده. لم يضايق نفسه بمراجعة درجاتي في المدرسة، حتّى توقيع الأهل المطلوب أحياناً، كانت أمّي من تتولّاه، لم يظهر أحد من أقربائه ولم يظهر هو لأحد. أيّام نادرة هي حين يصطحبنا بسرعة لمأتم أو عزاء، نرى اختلاف الناس والطبقات، لكنّ سلوك أبي لا يتغيّر؛ سلامات لطيفة وجلوس مُجامِل ومغادرة سريعة. كان أبي مهندساً معماريّاً، في جيله كان هذا يعني شيئاً، وحاول هو جعله يعني شيئاً في أيّام لاحقة، لكنّه بقي في شركة تابعة للقطاع العام.

قد أستسلم أحياناً لمثل هذا المنطق البسيط الذي يفترض أنّ مهن البشر قد تفرض عليهم شيئاً، ففي حالته يمكننا التخيّل أنّه شخص منضبط، منحاز للقياسات والدقّة، ولكنّني لم أعرف عنده شيئاً يؤكّد هذا من عدمه، ولم ألاحظ مثلاً ولعاً زائداً لديه بالرسوم، ولم يجد سهولةً في شرح الهندسة الفراغيّة لي، ففضّل أن يعهد بي إلى مدرّس خصوصيّ. كانت أمّي هي كلّ شيء بالنسبة إلينا، أنا وأخي. يمكنني، بمزيد من التفكير، أن أعترف بأنّني ربّما أنا الذي لم أهتمّ بأن أعرف شيئاً عنه، أبعد من سكّر قهوته أو شايه، أو أين يضع سجائره سواء لإحضارها له أو

لسرقتها، أو بعض من الأصدقاء الذين يجلس معهم على قهوة غير بعيدة من بيتنا، أو لعبة الطاولة التي أراه يلعبها بين حين وآخر، من دون أن أعرف نوع لعبته حتّى. حتّى حين كان يهوّن على سجني الذي قرّرته أمّي، كان يطلب لي الشاي ويجلس صامتاً. كنت أحسّ أنّه يؤدّي مهمّة ثقيلة عليه.

لم يوجّهني أبي إلى شيء، ولم يكن هنا حين حدثت كلّ الأشياء المهمّة في حياتي، وحين صودف وكان هنا، هرب.

كيف حالها اليوم؟!

يباغتني وأنا ألتقط بعض الحليب من المبرِّد. يقف هادئاً بمنامته وروبه العتيق، كهارب من أفلام الأبيض والأسود. ينظر إلى وقد وضع يده اليمنى في جيب روبه، مبرزاً إبهامه فحسب.

بخير..

أجيب وأنا أضع بعضاً من الحليب في الإناء المعدني الصغير، ثم أضعه فوق النار الهادئة. هو لم يزرها سوى مرّة واحدة في الأسبوعين الأخيرين.

امتلك أخي الأصغر فضولاً أعمق، في ما يبدو، فمكّنه ذلك من أن يعرف عنه أكثر، في ما يبدو أيضاً. أتذكّر اهتمام أبي بزيجته، حتّى إنّه انهمك بنفسه في مناقشة التفاصيل مع أهل العروس، بينما في حالتي أنا، فقد جلس وكأنّه في عزاء أو في فرح أحد أقربائه الأبعدين. امتلكت أمّي دهاءً ما، فلاحظت أنّها حينما تريد أمراً تعرف استعصاء الحصول عليه من أبي، تبعث إليه بأخي الأصغر الذي يجيد الاستهلال، فصَيحة من هنا وقبلة على الخدّ من هناك، ليبتسم أبي وتبدأ الأحجار بالذوبان. لم يُذِب مرضُها قلبَه إذن؟

أتتحدّث معك؟

قليلاً..

كلام موزون أم...؟

أنت تعرف مثل هذه الحالات...

منذ سنوات ثلاث ونحن نقيم معاً مجدّداً، لم أودّعه إلّا قبلها بثلاث

سنوات، في بداية زواجي، وعندما رجعت لم أجده غير على ما تركته، ولم أجده في هذا الموقف هنا على غير ما تركته، حين كنت أنا في دوّامة لا أعرف منها مهرباً.

أخوك زارها أمس، لم تعرفه...

هززت كتفي بلا معنى واضح. ظللنا صامتين، بينما يهسهس الحليب فوق النار قليلاً. يتنهّد ويبدأ بالتحرّك داخلاً إلى عمق الشقّة.

أبي..

نعم؟

ما هي حكاية أخي الأكبر بالضبط؟

زرّ عينيه وسألني ما الذي ذكّرني بهذا الآن. قلت له إن أمّي كانت تذكره، سأل كيف، أجبت بأنّني لم أعرف كيف أربط الكلام. قال لي في نبرة بدت عجيبة إنّ أخي قد مات في المستشفى رضيعاً، أمّك أصيبت بانهيار ساعتها، حمّلت نفسها مسؤوليّة نفورها منه في البداية. حاولت إخبارها أنّ هذا شعور طبيعي لكنّ حزنها كان أكبر. تعافت بعد قليل ونسينا الموضوع، أو تناسيناه. صمت للحظة. ثمّ جئت أنت. قال بنبرة فاجأتني.

لم أعرف كيف أردّ على ذلك. لم أفهم حتّى معنى نبرته. انهمكت في صبّ الحليب فوق باكيت الشاي في كوب كبير. تركني وذهب كما انتوى، كما يفعل عادة.

إله. أبي؟

نعم، لقد تظاهرت بأنّني لا أعرف أخاك.

هكذا قالت لي. أكملَت أنّها فعلت هذا منذ البداية. إلّا أباك، قلت إنّني لا أعرفه، سألته من هو، ولكنّه يعرف. هو يعرف. هو يعرف منذ اشتمّني في هذا اليوم البعيد. ولِمَ؟!

لِمَ ماذا؟! لِمَ فعلت ذلك مع أخي؟! أخوك ذو دم ثقيل، أتعرف؟ لا، لا أعرف، هو البهلوان في البيت، هو المهرّج دائماً. هو يمثّل ذلك، هو يفعل ذلك ليبلغ ما يريد. لقد أنجبناه بعدما كبرنا، وطغت حالنا على ماضينا، فنشأ آدميّاً جهولاً. كلّنا، قلت. لا. أنت لا. أنت أقلّ جهلاً. لا أظنّ ذلك. أنا أظنّ. أنا أمّك. اسمع ما أقول. حسناً. ولكي لا تذهب بك الظنون، الأمر ليس فيك، الأمر فينا. لكن هذا يعني أنّ أخي الأكبر كان أقلّ جهلاً منّي أيضاً. قلت وقد حسبت أنّني أعرف ما تقصد. لم يكن ليعيش. عرفت هذا عندما شممته. قالت.

وقبل أن أردّ، باغتتني بسؤالي إن كنت أعرف كيف قابلت والدي. قلت لها إنّها قالت لي إنّهما تقابلا في آخر سنة في الجامعة. أجابت بلى، لكن ليس بالضبط. ليس بالضبط؟ بلى، قابلت والدك في الجامعة، وعرف كلّ منّا ماهيّة الآخر، كان بعد وقت لا بأس به من الحصان، لذا لم يشتمّ شيئاً. لمعَت عيناها، ضحكَت. نظرَت إليّ فابتسمتُ. في أوّل لقاء بيننا، طلب لي سمكاً في المطعم بجوار النيل. هل تتخيّل؟ سمك! أيّ سذاجة هي؟! هي أسهل الحلول قاطبة! اتّسعت ابتسامتي، بينما أكملَت وهي تشرد ببصرها، لم يكن هذا هو السبب في قرارها أن يكون والدي وليفها. إذن كيف؟!

حسناً. لا تظن أنّك أنت وحدك من كنت في الميدان الكبير، كنّا أيضاً هناك في شبابنا. ومثلكم ضربونا وقذفوا بالدخان علينا. جرينا. جرينا أنا وأبوك. أنت وأبي؟ أبي أنا؟! نعم! لا تكن سخيفاً، جرينا وجرينا ثمّ وصلنا إلى عطفة مغلقة. أتعرفها؟ هناك عند بائع الكشري المشهور.

هززت رأسي بأن نعم.

كانوا يعدون وراءنا، يقتربون، هراواتهم في أيديهم وشواربهم في وجوههم. نظر كلّ منّا إلى الآخر، أنا وأبوك، كنّا هالكين لا محالة، هكذا اعتقدنا، لم نحسّ بأنّنا سنُضرب أو سنُصاب فحسب، لقد أحسسنا كأنّهم سينكّلون بنا حتّى الموت. وفجأةً، وجدت أبوك يقفز أمامي، قطّاً أسود رشيقاً، شعره قصير ولامع، وشواربه طويلة ومهتزّة، يتشبّث بالحائط،

ينظر إليّ، يموء. دونما إحساس وجدت نفسي أقفز وراءه، لم يُتح لي أن أرى نفسي، ولكنّني كنت أعرف، كنت أعرف؛ أنا بيضاء اللون ذات بقع مشمشيّة وسوداء، شعري أطول من شعر أبيك، ذيلي منتصب الشعر الطويل الجميل، وجدت نفسي أتسلّق الحائط معه، حتّى استوينا فوق سطح المبنى، كانت مدرسة للبنات، وعندما نظرنا، وجدناهم يقفزون وراءنا.

يقفزون وراءكم؟

بلى، يقفزون ويزمجرون، تقدح أعينهم بالشرر، لم ننتظر أنا وأبوك، عدَونا، عدَونا مجدّداً، بكلّ ما نملك من قوّة، إن عقرونا فسنهلك. الجنود؟ الذئاب! ذئاب؟

بلى، هؤلاء هم ذئاب، العصا والناب، المخالب والعواء. أخذنا نقفز، وبعضهم وراءنا، الأشرس والأقوى، الضعفاء منهم قليلاً لم يبرعوا في التسلّق، لكنّ الباقي كان كافياً، ناور أبوك، قفز إلى داخل فصل دراسيّ، فوجئت البنات. قطّتان. زجرتنا المدرّسة، لكنّ الدم تجمّد في عروقها حين ولجت الذئاب وراءنا، أُغمي عليها، صرخت البنات فزعاً، لكنّ أيّاً منهن لم تُصب بسوء. خرجنا إلى ردهة المدرسة المستدقّة الطويلة، وخلفنا الزمجرات. كان الكلّ يعدون خائفين، ليس منّا بالطبع. قفز أبوك مرّة أخرى وأنا وراءه، أخذنا نقفز فوق المباني، عبرنا بعشّاق فوق الأسطح، ومزّقنا ملابس تُركت لتجف، ونزلنا فوق مواسير صدئة وعدونا فوق أدراج حجريّة وخشبيّة. عبرنا الشارع العريض فتصادمت العربات، وتفَل الناس مشاريبهم عند بائع العصير وفوق طاولات المقاهي، دخلنا في حارات وقفزنا فوق أبواب، وعندما تعبنا، عند العمارات ذات القبب الكبيرة المشرفة على الميدان الفوضويّ، ظهرت مجموعة من الكلاب، كلاب رفيعة الجسد، ضئيلة الحجم، ولكنّ بعضها بجوار بعض، كانت عصبة ذات بأس، زمجرت في وجه الذئاب المتعبة، تراجعت، التفتت الكلاب إلينا، تبادلنا النظرات، كنّا شاكرين وكانوا رفقاء. اختفينا كلّنا؛ القطط والذئاب

والكلاب. ذبنا وسط العالم الجديد، سقاني أبوك عصير القصب في الشارع الطويل، ربّت كتفي. أأنتِ بخير؟! قال بصوته العميق.

كنت بخير، وعلمت أنّني دوماً بجواره سأكون بخير. صمتَت أمّي. صمتُّ أنا أيضاً.

كيف حدث هذا ولم يتحدّث الناس عن هذه الأسطورة حينها؟ قالت وكأنّها تقرأ أفكاري إنّ الناس تحدّثوا عمّا حصل. قالوا إشاعة، وبالطبع هي إشاعة، أيّ ذئاب تعدو وراء قطط في وسط المدينة؟ أيّ ذئاب تدخل مدرسة في وسط خلّاط كبير نسمّيه مدينتنا؟! صارت إشاعة لوقت قصير، قبل أن ينساها الناس، ومن رأى وأصرّ، تلقّفته المستشفيات والأطبّاء النفسيّون. البوم.

بوم؟!

من عالجك مثلاً، هو بومة.. ألم تلحظ ذلك؟!

كلّنا نقترض البيرة، لا نشربها.

هكذا كنت أقول لنفسي، بعدما تجرّعت من المشروب الذهبي اللون ذي الرغوة، ليخرج منّي، بعدها بدقائق، سائل ذهبيّ اللون ذو رغوة، يضرب سطح المبولة، يلتفّ معها، ليهبط في قاع المجارير. في تلك اللحظة، وبينما أنا مشغول بتسديد دَيني، تصاعدت رنّة المحمول.

سيجارة في الفم، وذكري يتدلّى أمامي، وعيني اليمنى مغمضة بفعل قرب الدخان. التقطتّ المحمول ونظرت في شاشته، كان أخي. يا له من وضع ووقت مناسب له، فكّرت. رددت عليه وأنا اجاهد بيدي اليسرى لإرجاع ذكري لغطاء لباسي.

آلو.

أخيراً! أنا أهاتفك من زمن.

لا أتذكّر هذا البتّة، لكنّي رددت بينما أميل برأسي لأحشر التلفون ما بين هذا الأخير ومنكبي الأيمن، تاركاً يديّ حرّتين لتكملا ما بدأت به

اليسرى وحيدة.

خير خير.. ما الأمر؟ ذهبت إلى أمّك البارحة، لم تتعرّف إليّ. نعم، أخبرني أبوك. طيّب وما جدوى أن تبقى هناك؟ هي لا تتحسّن.

آه، هي النقود طبعاً. يخاف الفتى الأصغر المدلّل من أن يتورّط في الدفع.

أظنّ أنّ وضعها هناك مثاليّ، لا توجد لدى أبيك طاقة للاعتناء بها، وأنا غير موجود في البيت دوماً. طيّب ولماذا لست موجوداً؟! ما الذي يشغلك وأنت عاطل عن العمل؟! هل تحاول أن تبحث لي عن عمل كممرّضة؟!

كنت أرجع إلى حيث طاولتي، هناك حيث السور الواطئ ذو الأغصان الصناعيّة البائسة، بينما يقول لي إنّ تكاليف المستشفى عالية، وإنّ مرض أمّي لا شفاء منه، من الأفضل لها أن تبقى في المنزل. أنت تزورها كلّ يومين على أيّ حال، وفّر جهدك. اقترحت عليه أن يعولها هو، هو لديه زوجة على أيّ حال، والنساء أقدر منّا على تحمّل هذه الأشياء. ردّ بأنّ زوجته تعمل أيضاً، وهناك الأطفال، لم يكن أحمق ليفصح عن مخاوفه التي أعرفها.

أتى النادل ليرفع الزجاجات من أمامي، رفعت له سبابتي؛ واحدة جديدة. هزّ رأسه بأدب ومضى. كان أخي ما يزال يواصل مونولوج أحزانه العاقل الطويل. لا يحتاج إلى زيارة الفكاهة حتّى يقنعني كما يفعل مع أبي، أو ربّما هو فعل. من الأسهل أن يقصد أبانا مباشرة، وبينما كنت أفكّر، فاجأني بأغرب ما يمكن سماعه: حاول مع أبيك، هو يسمع كلامك.

أيمزح؟! أيّ أب يسمع كلام أيّ ابن؟! منذ متى؟!

ثمّ، ألَم يكبّلني بيديه حتّى يعرضوني على الطبيب؟! ألم يروني مجنوناً انتهى أمري، أو مجنوناً في دور تعافٍ طويل لن يتمّ أبداً؟! خُيّل لي أنّه يحاول إقناعي عن طريق تملّقي، هو خطير، خطير هذا الأخ الأصغر. لاحظ، في ما يبدو، صمتي المتفاجئ، فطفق يقول إنّ أبي يثق بي تماماً، وإنّه يسمع كلامي دوماً وإن لم أعرف أنا ذلك. هو يثق بك أكثر

منّي، كان يخبرني أنّ أخاك الأكبر لا حاجة له بي، هو يعرف طريقه، أنت الأحمق الذي يحتاج إلى رعاية.

قلت له يجب أن أكون أنا مقتنعاً لأحاول مع أبيك، أنا نفسي غير مقتنع، المستشفى أفضل كثيراً لأمّك، قد أسهو أنا وأبوك، قد تضيع منّا، قد تستخدم البوتاجاز خطأً فيقع ما يقع، قد تحاول الخروج فتقع من فوق الدرج، قد يباغتها أحدهم وهي وحيدة. لا، هي هناك أفضل. صمت وقال إنّه يقول لي ما يراه الأفضل، على العموم هو قرارنا أنا وأبيه. ودّعته وأنا أعلم أنّ الموضوع لم ينتهِ، سيعاود فتحه بعد قليل.

في النهاية، تبادلنا الأسئلة الرتيبة عن الأحوال، الإجابات الرتيبة عن الأحوال، والنبرة الرتيبة للشكوى من صاحب بيت، وسلامي للزوجة والأولاد، وسلام الزوجة والأولاد لي. وعند النهاية التقليديّة قال لي كقدّيس ألّا أشرب كثيراً.

بوذا، أخي الأصغر هو بوذا. ألف شكر.

جرعت من البيرة، وتطوّحَ رأسي قليلاً، أعلم أنّني سأمشي بعد قليل في طرقات القاهرة، وقد يستبدّ بي الحنين فأرفع رأسي إلى السماء وأكلّم الله وأنا مخمور، وأستغلّ هذه الحقيقة في إثبات أنّني لم أنسه، أنا مخمور وأحادثك يا الله. كُن رحيماً بي وبأمّي. كُن رحيماً بي وبأمّي وبأبي وأخي، وبامرأته، هذه العقربة. عقربة؛ هذا ما يقولونه عن النسوة الشرّيرات، أما ذئبة؟!

ذئبة؟! تذكّرت حديثها عن مطاردة وسط البلد، ونظرت حولي، أرى القباب التي حكت عنها غير بعيدة جدّاً، ربّما وثب أبي وأمّي من هنا، من هذه الشرفة؟! ثبّت لي رشدي يا الله، أيّ مجنون أنا؟! أيّ ذئاب وأيّ قطط؟! أحادث الله وأنا مخمورٌ هائمٌ على وجه الأرض إلى أن أجد تاكسي يقلّني إلى البيت البعيد القريب في هذا الوقت من الليل. لكن ذئاب وقطط؟!

أدقّق في الفاتورة أمامي ببارانويا السكارى. أترك وريقات مكوّرة مكرمشة وكأنّها قد استُخرجت من فم كلب. أترنّح قليلاً وأنا في طريقي،

الحمّام ثانيةً ثم أمضي، هناك ميعاد مع الله لا يُستحبّ تأخيره.

كنت أتوق لأن أشعر بهذا مجدّداً. كنت أتوق أن أرجع قطّة تقفز فوق الأسطح، تلتفّ حول نفسها وتنام.

قالت لي هذا بعدما شفطت قليلاً من عصير الأناناس الذي أحضرته لها من الكافيتيريا. قلت ممازحاً: أوَليس أن تكون إنساناً لهو المكافأة الكبرى؟! أو الكبَد المطلق، ردّت.

فكّرنا أنا وأبوك كثيراً في كيفيّة أن نرجع لهذا ثانية، كيف لنا أن نعيش هذا ثانية. لم نعرف لِمَ حدث هذا ولا نعرف لِمَ رجعنا للحالة البشريّة ثانية، على العموم ما حدث جعلنا واحداً، هي ذكرى لا يمكننا أن ننساها.

شردت، فكّرت فيها، لقد مررنا بالكثير في سنوات ثلاث، نعم، لا يمكنني أن أنساها. جاءني خاطر أنّ من الأفضل أنّني أكلّم الله عندما أثمل، أفضل من أن أتذكّرها وأبكي، كما يفعل بعض الناس في الحانات؛ تثور عليهم أحزانهم، وتنفجر منبثقة من عيونهم وأفواههم. لا، لا أريد أن أكون هذا الرجل.

نظرت إلى حيث النافذة، شجرة تهتز رويداً من ورائها، قالت إنّ كونك بشريّاً لهو ميزة. لديك الخمر، لديك أنواع من الطعام لا يمكنك أن تأكلها كقط، الملابس في الشتاء القارس مفيدة ولكن هذه الأرض لا تعرف مثل هذا الشتاء. قالت لي إنّ جسد القطط يرتاح للسخونة أكثر، لا نعاني نحن من حرّ الوادي القائظ. هكذا كانت قطط هذا الوادي أقدم أنواعها. هناك الكلام، لدينا كلامنا، ولكنّ كلام البشر يغري بالخديعة، وله تلافيف وحنايا، كنت أستطيع أن أتكلّم بذات اللسان، نحن الصامتون الثرثارون، أتعرفهم؟ غالباً هم كلاب ذات قلوب طيّبة وأفكار متضاربة كثيرة.

كنت أحبّ الحكايات وكنت أحبّ أمّي، فاستمعت بلا مقاطعة.

يمكنك أن تقول الشيء نفسه عن الألوان أيضاً، لكنّ بلادنا رماديّة يا بنيّ، كالحة. تبدو لعيوننا الجديدة باهرة لوقت قصير، قبل أن تعي عيناك

لون الرصاص في كلّ شيء. ما زالت تحدّق في الشجرة المهتزّة. أتعرف؟! كثير منّا يحسّون بذلك، كثير جدّاً. وكيف عرفتِ؟ أخبروني. كيف؟ كيف. حسناً، بعد سنين لا هي طويلة ولا هي قصيرة، وبعد أن تزوّجت والدك، وكنّا محظوظَين بسكننا في نفس البناية التي تربّيت فيها، بيت عائلتك التي لم يبقَ منها أحد، كان لديّ إحساس بأنّني سأراها.

لم أعرف من تقصد، أتقصد صديقتها مديحة؟

كنت واقفة عند بائع الآيس كريم، قريباً من ميدان الكنيسة المهيبة، لمحتها. هي، بألوانها الأبيض والأسود والمشمشي، شعر جسدها وذيلها الطويل. كانت تحدّق بي، وكنت أحدّق بها، كانت عند ناصية شارع جانبيّ، واقفة. هسستُ لها، رمشَت بعينيها الخضراوين، عينيّ القديمتين، ولم تتحرّك. تركتُ صديقاتي، صديقاتها، قلت سأرجع. اقتربت منها فجرَت. لا، لا يمكن أن أفقدها ثانية. عدَت فعدَوت وراءها، لم أبالِ بالآيس كريم، تركته يسقط من يدي على أيّ حال، أخذتُ أطارد من كنت، وأخذَت هي تهرب ممّن كانت، دخلتُ في بيت عتيق في شارع هادئ، بعيداً عن الشوارع المزدحمة الصاخبة التي أتينا منها. قفزَت من بين الزخارف الحديديّة في الباب وكنت محظوظة أنّه لم يكن مغلقاً، فتحته وأمكنني رؤية ذيلها يهبط فوق الدرج الخشبيّ إلى حيث البدروم، دقّ كعباي المصرّان على الخشب القديم، وعندما لمست الأرض بدا كأنّ كلّ شيء قد تحوّل بدوره.

تحوّل؟!

نعم، بدا فجأة كما لو كنت في كهف حجريّ مظلم، لا تضيئه سوى مشاعل كما نرى في الأفلام، وفي وسطه كانت هي تقف ثانيةً ذات الوقفة التي رأيتها عليها في الشارع. ومن قرب، وعلى ضوء المصابيح اللاهبة، أمكنني رؤية جرح طويل غائر يمتدّ على ذراعها؛ جرح النافذة القديم. بدت نظيفة وقويّة رغم ذلك، لم يصبها وهن أو هزال، وبجوارها وقف كلبان، وابن عرس، وفأر بدين. لم أدرِ ما أقول، لكنّ الفأر بادرني: ما الذي أتى بك إلى هنا؟!

تكلّموا مثلنا؟! سألتها بحماسة.

لا، لا أتذكّر إن كانوا تحدّثوا بلساننا الجديد، كانت لغة وكنت أفهمها، تحدّثنا بذات الأصوات. قلت له إنّني أنا من هي على جواره. قال هذا تاريخ قديم، ولا يودّ أحدنا أن يتذكّره الآن. قاطعنا ابن عرس: حتّى إن كنتِ أنتِ هي، فماذا تريدين؟! قلت إنّنا عشنا سنواتٍ طوالاً معاً، هي اعتنت بي، وصار الآن دوري أن أعتني بها. نظر إليّ الكلب بصمت وتقدير، وبدا كأنّ الجمع يحسدها، لا يريدهم أيٌّ ممّن كانوهم قبل ذلك؛ البشر لا يودّون تربية بنات عرس وفئران الفأر القذر وابن عرس حرامي الذهب والأشياء اللامعة. لم يسأل أحدهم كيف عرف ابن عرس أهميّة الذهب.

وفي هذا البلد لا أحد يودّ تربية الكلاب البلديّة، على الأغلب هم يطاردونها، يعذّبونها، وينصبون لها المصائد.

كانت تنظر إليّ وكنت أنظر إليها. تعالي. قالت لي في النهاية.

مضت ومضيت وراءها، أفسح لي الجمع الصغير ممرّاً. لم أكن خائفة، ولكنّني كنت متحفّزة.

لم أفكّر أبداً في الانتحار؛ فقط كنت أودّ لو أنهى الله حياتي أثناء النوم، بهدوء.

لم أخبر أمّي، ولكنّني عرفت أنّها تعرف، وتقدّر. كل يوم لا يشبه سوى ما قبله، وكلّ ما بعده لا يشبه إلّا ما سيأتي بعده. كنت صامتاً، وكانت صامتة كعادتها. هي لم تبدأ بالكلام فعلاً إلّا في هذه الأيّام. كان صمتي يرافقني حتّى عندما أخرج وأجلس على القهوة، وحيداً غالباً، حتّى حين أكلّم بعضهم في الهاتف، حين آكل، حين أستحمّ، حين أشاهد الأفلام وأتابعها أخيراً. وكان الليل يأتي. صديقٌ قديم، لكنّه يأتي في عزلة الظلام. وحيداً فوق سريري، أشعر بأنّني لا بد من أن أختفي، أن أتلاشى، أن أتوقّف عن الوجود.

بدت لي حياتي كسلسلة من الإخفاقات والخيبات، وعندما جلست في مطعم الوجبات السريعة لأتناول شطيرة من لحمٍ لا أعرف كنهه، بدت لي الإضاءات الفلوروسنتيّة باردة، وبدا لي كأنّني جالس في مستشفى، وبدا لي أنّ العالم المزدحم وراء الباب الزجاجيّ يعجّ بكلّ شرّ، عالم مزعج صاخب ذو أنياب، كابوس، كابوس مقيم وأنا مسجون هنا فيه، بلا نجوى ولا أمل.

في ساعات، كنت أفكّر أن أسافر بعيداً، ثمّ أهرب. أمزّق جواز سفري وأمشي في بلدان لا أعرفها ولا تعرفني، ألّا أكون أنا. أحياناً كنت أفكّر في أفكار أخرى، أن أزوّر جواز سفر، أن أنشئ صفحة باسم لاتيني على موقع التواصل الاجتماعي الأشهر، أن أعيش أيضاً كرجل آخر في شوارع أخرى وبيوت أخرى ونساء أخريات. كانت هذه الأحلام الطفوليّة تهدهدني حتّى أرخي جفوني وأنام.

في يوم لن أنساه، كنت جالساً في أوتوبيس، أنظر من النافذة، فجأةً، أحسست بكوني طبيعيّاً. تملّكتني فرحة، لم تكن هيستيرية ولم تكن غامرة، فقط فرحة حُبلى بالاندهاش والمفاجأة.

كنت أجيل النظر حولي، وأتشمّم الهواء الذي يضرب وجهي. أحسست لأوّل مرّة منذ سنوات طويلة بالراحة، أحسست أنّني أنا، أخيراً. وجدت نفسي أغمض عينيّ مستمتعاً بالشمس، وبدت لي الشجيرات فجأة أكثر اخضراراً. بدا لي، للحظة، وكأنّ عالمي القديم رجع، أنّني عدت، وأنّهم عادوا، هذا العالم القديم البعيد الذي حفل بالأمنيات والأحلام، الذي حفل بفتوّة الصبا واليقين المتفائل. كانت لحظة ربّما لم أقدر على وصفها كما ينبغي، أو لن أستطيع وصفها كما ينبغي، ولكنّني كنت جالساً بجوار نافذة في أوتوبيس، وفجأة شعرت بأنّني إنسان طبيعي، مثل أيّ شخص لا يعاني ممّا عانيت منه.

صحيح أنّ نوبات القلق ظلّت تأتي بين الفينة والأخرى، لكنّني لم أعد أصحو في الصباح منقبض الصدر، أو دعنا نقُل بوضوح؛ لم أعد أصحو في النهار وصدري منشرح، ليتملّكه القلق في ثوانٍ أعرفها وأحسّ بها، وكأنّه

فيروس إلكتروني خبيث يُحمّل على جهاز كمبيوتر، يتشعّب ويتمدّد ويتقدّم ثمّ يجثم، قبل أن تمتدّ يدي إلى علبة السجائر لأشعل الكثير منها، واحدة تلو الأخرى. لا، لم أعد أحسّ بهذا، كنت أقوم متثاقلاً كأيّ إنسان طبيعيّ، ولا يزورني القلق إلّا حين تشرد فكرة أو أخرى عن فشل أو إفلاس، ليفتح المجال مؤقّتاً للهواجس التي سرعان ما تتلاشى. كنت أفضل حالاً، بالتأكيد. كنت أصحو جائعاً، لقد نسيت هذا الإحساس منذ وقت طويل، ربّما منذ كنت معها، هي التي تسمّينها ذئبة.

وكنتِ هناك صامتة، صامتة، تعدّين لي الطعام وتسألينني أسئلة قصيرة، تمنحينني نقوداً ولا تنسين أن تنبّهيني إلى أنّ هذا لن يدوم.

أنا لن أدوم لك، لا أنا ولا والدك، يجب عليك التصرّف. كانت تقولها لي وكأنّها تؤدّي واجباً ثقيلاً، إلى أن ابتسمت يوم أحضرتُ لها أوّل وجبة ابتعتها من أجر عمل جديد. يومها افترّ ثغرها الجميل عن ابتسامة حلوة.

مَن يصدّق أن تصابي بمرض عضال. من كان يصدّق؟! في البداية اضطربت، بدأت رغبات الفناء في زيارتي وبدأ القلق يملأني كماء يتصاعد في عبوة بلاستيكيّة؛ خالة أمّي، ثمّ أنا، والآن هي. تقول إنّها كانت قطّة، قبل أن أبدأ بالاستغراق في سماع حكاياتك، حكاياتك التي كانت تنتشلني من كلّ بؤس رماني فيه غيابك، في عالم أستوحشه ويستوحشني، كنت وحيداً يا أمّي. كنت وحيداً بدونك فأتيتني بحكايات لم أتصوّر في يوم أنّني سأسمعها.

كنت أغمض عينيّ، وأنام.

مشيت وراء القطّة، ووجدت نفقاً ينفتح أمامي.

كنت أجرع من قدح النسكافيه، أخيراً منحوني واحداً، وأسمع.

نزلت درجات وراءها، غمرني نور لم أعرفه في باطن البدروم المعتم، هي تمضي، وأنا وراءها، وعن يميني ويساري مناظر كما الواجهات الزجاجيّة للمحالّ، وراءها رأيت الكثير: قطط تجلس على موائد وتأكل

بالشوك والسكاكين، مرتديةً ملابس تشبه ما أرتدي، كلاب تقبع في غرف المعيشة، خنازير تلعب الكرة، ثعابين تجلس أمام شاشات عرض تصوّر ثعابين أخرى. ناديتها، أين نحن؟!

أجابتني دون أن تلتفت، أنتِ في البرزخ.

كنت أسمعها. أجرع من النسكافيه وأبتسم. تنظر إليّ مبتسمة.

إذن من أين أتى ديزني بهذا، بربّك؟! تقول. لكنّ الحيوانات صُوّرت كبشر منذ أقدم العصور. أردّ. من أين أتى هذا أيضاً؟! أنت في أقدم أرض عرفت هذا. بنو آدم برأس كلب.

أقولها وأضحك، وهي تضحك معي.

تكمل أنّ هؤلاء من يريدون أن يعيشوا كبشر. هم، في ما عرفت بعد ذلك، أسوأ الأنواع، أسوأ أنواعنا، لم أفكّر في كوني بشريّة، ومها أيضاً، مها لم ترغب في العودة إلى الشوارع المرصوفة، ولا إلى الملابس، ولا إلى العفّة، ولا إلى التعفّف. ما جعلني أفكّر في هذا هو أنّني قد رأيت فأراً يجري في بيت القطط، وحمامة ترمق الثعابين من سقف قاعة السينما، هناك من بدوا كمن نعرف: فقط حيوانات، فقط ما هم عليه، هم الذين لم يريدوا ما حدث، ويحدث، وسيحدث.

كنّا ننزل أكثر وأكثر، قبل أن نبلغ فجوة في نهاية البرزخ، تخرج منها القطّة. كانت فجوة لا تناسب جسدي الجديد، أقعيت وزحفت، وأمام عينيّ انفتحت غابة، غابة ممّا نراها في الأفلام، غابة لا نجدها إلّا في أحراج أميركا اللاتينيّة، وهي تموت الآن على أيّ حال، مقدّمة أجسادها قرباناً للكتب التافهة، والسجائر، وعبوات السموم التي يقدّمونها لنا كبهجة للحياة. من قبل أن أعتدل حتّى، كانت عيناي قادرتين على التأثّر بجمالها. اعتدلت. وعندما اعتدلت كانت رائحة بهيجة لا أدري كنهها، رائحة لا يمكن لأحد أن يصنعها ولا يمكنني أن أستحضرها ثانيةً في عقلي. كلّ ما أحسست به هو السعادة، ونسمة تداعب وجهي، وأصوات عصافير وخرير ماء.

هي الجنّة. قالت لي القطّة. ومن يترك الجنّة؟! سألت. نظرت إليّ

وقالت الآن تفهمين. رأيت طائراً عجيباً يحوم في السماء المضيئة بلا شمس. حقّاً، لم توجد شمس هناك. إذن، كيف تُضاء هذه الجنّة يا أمّي؟! لا أعرف، لا أعرف فعلاً. ولا أعرف أيضاً لِمَ سألت القطّة: أهي جنّة فعلاً؟! نظرت إليّ صامتة. فجأة، ما بين غمضة العين وانفتاحها، وجدت الشجر الكثيف ذا اللون الأرجوانيّ يتمايل بخفّة في الهواء، يطير، بل يطفو. نظرت تحت قدميّ، كأنّني أقف فوق ماء يتماوج ويترقرق. ماء بلون الذهب. رأيت السماء بألف لون، أم هو لون لا يمكنني تحديده، وتحتها كان الوجود كلّه يطفو، ويشعّ ألواناً تضيء السماء. رفعت يدي اليمنى لأجدها تشعّ نوراً، جسدي كلّه. وأمامي القطّة التي تتألّق هي الأخرى.

هنا فقط ردّت عليّ: هي الجنّة، لكن لا تدعي الثعابين تلدغك، ولا العناكب تمشي فوق جسدك، ولا تستمعي لفحيح السحالي. هذه هي الأشياء التي تسلّلت معنا إلى الدنيا. الدنيا الساحرة، البشر الساحرون، الدنيا التي يحكمها القرود.

القرود؟!

سألت متعجّباً.

نعم. القرود. أشدّ بطشاً وقسوة. هم الدرجة الناقصة. ومن بلغها قاتل حتّى يعيش الدنيا لنهايتها. بهلوان البشر الذي صار سيّدهم. ليست النمور، ليست الأسود، ليست الذئاب حتّى. هم قرود يسيرون ضباعاً. هم من يكتبون كلّ شيء على وجه البسيطة.

كنت أسمع ولا أعرف بمَ سأردّ. نظرت إليّ نظرة رقيقة.

إذن، ماذا حدث بعد ذلك؟!

لا أعلم. فقط تلاشت الأشياء من حولي. وجدت نفسي واقفة عند ناصية الشارع ذاته الذي بدأت منه. تلقّتُ غير مصدّقة، هو عالم الشوارع المرصوفة، مرّة أخرى. قضيت شهوراً طويلة أبحث عنها في كلّ مكان، وقضيت أيّاماً متقطّعات أمشي إلى حيث البيت المغلق بإحكام، والتراب الكثيف فوق بابه ونوافذه. أتعرف؟ مرّة، قضيت ليلة بحالها قابعةً أمام هذا الباب مراقبة إيّاه، وبلا طائل في النهاية.

تضحك وتقول إنّ أبي كان في غاية الغيرة بسبب هذه الليلة التي اختفت فيها، ولكنّها تعرف أنّه قد تشمّمها وأيقن أنّه لا أحد هناك، لم يمسس أحدهم أنثاه.

حتّى جاء يوم وجدتها راقدة عند باب البيت. كنت في طريقي إلى العمل، وكانت متعبة ومجروحة. لم أفهم شيئاً ولم أتمكّن من الحديث إليها بلساننا ثانيةً. كنّا في الدنيا. بقيت معي ثلاث سنوات، أحمّمها وأطعمها وأعتني بها، حتّى جاء يومها، والآن يقترب يومي، أخذت أرواحي معي، وتركت لها روحاً واحدة مضت سريعاً. لذا كانت لطيفة معك، لا؟!

مهلاً، أتقصدين قطّتنا القديمة عندما كنت صغيراً؟! فعلاً؟!

نظرت إليها ونظرت إليّ. كانت تبتسم، ولم أعرف أنا، ما الذي بدوت عليه.

بدت كتمثال يتعلّم الحركة. بدت كغلالة واهنة لما كانت عليه في يوم من الأيّام.

كانت تقلّب نظراتها في حجرتها القديمة، كنّا في البيت أخيراً. وكان أبي يقف بجواري ناظراً إليها. كنّا في البيت أخيراً، أو هو بيت أبي. غمغم بكلمات المواساة الفارغة، بينما عجزت هي عن إكمال جملة مفيدة. زمّ شفتيه أكثر وأكثر، نظر إلى الأرض، قال لها إنّ من الأفضل أن ترقد على سريرها. ساعدتها في تغيير ملابسها، والتقط أنفي روائح المستشفى الممتزجة بعفن ما. أرقدناها على السرير، رضيعة في جسد عجوز. عدنا كما كُنّا في يوم من الأيّام: أنا وهو وهي ولا أحد معنا. لم يأتِ أخي أو امرأته. سيأتيان، طبعاً.

وقف قليلاً بجوار الباب، واضعاً يديه في جيبي سرواله. حسناً. سأخرج الآن. اعتنِ بأمّك. قال بما يشبه الهمس.

توقّف لبرهة ثم تابع أنّ من الأفضل أن ينام في مكتبه من الآن فصاعداً. سيستخدم الأريكة التي هناك. ربّما يحضر سريراً صغيراً، أو لا. هذا

سيضيّق الحجرة الصغيرة. سيرى. صمت ثمّ خرج بلا كلمة أخرى. لفّ جسده ببطء ولكن بنعومة. توقّف لجزء من الثانية مولياً ظهره لي، ثمّ مضى بخفّة. جلست على سريرها، أتأمّل الوجه الذي رجع كما كان في بداية مرضها: راية بيضاء تهزّها ريح خاملة.

أقلّب الشاي في المطبخ، ملعقة سكّر واحدة لي وثلاث لها. أحمل القدحين وأمضي إلى حيث غرفتها، تفاجئني عيناها اللتان تألّقتا واللتان تنظران الآن وتحدّقان. عندما ساعدتها على ارتشاف شايها رجعت ابتسامتها إلى وجهها. هذا أفضل الأشياء في كونك بشريّاً، القطط لا تتذوّق الحلوى. قالت.

كنت أعلم أن مرضها كاليد، مرّة تقبض ومرّة تنبسط. قالت، كأنّما تقرأ ما في عقلي، إنّها تتحسّن حين أكون معها. ابتسمت. نظرت لابتسامتي وقالت إنّني أوّل فرحتها، أوّل رجل أنجبت.

كنت جوهرة السر، يا بنيّ، وما زلت...

قبّلتها على جبينها، ثمّ رجعت إلى مكاني على السرير. تملّكتني بهجة ما. احكي لي حكاية عن الدببة التي تحوّلت إلى بشر. قلت عابثاً. آه.. الأوغاد الذين حبّبوكم في بني جلدتهم، وهم وحوش! ضحكنا. وعندما هدأت ضحكاتنا قالت: لديّ حكاية أفضل. هيّا!

حسناً..

اعتدلت فوق فراشها أكثر، بدت قبضتها أمتن على قدح الشاي، وبدأت بالكلام:

«مهلاً.. ما الذي حدث لك؟! تبدو أطول قليلاً!».

كانت هذه هي العبارة الثالثة لهذا اليوم، بينما يمشي في شوارع يعرفها ويعرف بعضاً من أهلها. لم يستطع أن يفهم ما سرّ هذه الملاحظة العجيبة، لكنّ بعض الشك داخله عندما انتبه في التكرار الثاني لهذه الملحوظة، أنّه صار يستطيع أن يرى من أعلى كتف صديق ما. قال لنفسه

هذه ترّهات وتهيّؤات. شكّك في إحساسه بعلوّ المنظور، قبل أن يسمع ذات الملحوظة للمرّة الثالثة.

حاول أن يكون عقلانيّاً، كشاب في أواخر العشرينات توقّف نموّه الطبيعي منذ سنوات عديدة بالقياس إلى عمره، وقال للصديق بلهجة ضاحكة:

ربّما نحفت قليلاً، وهذا ما أعطاك الإيحاء بأنّني ازددت طولاً.

بدا الصديق نفسه غير متأكّد، وهو ينظر إليه قليلاً، ثمّ قال:

ربّما؟!

صمت للحظة ثم تابع:

تبدو بالفعل أطول يا رجل، أطول بصورة ملحوظة.

ضحك وأجاب أنّه لا يعلم فعلاً، ولم يتمالك نفسه من إخبار الصديق أنّها ثالث مرّة يسمع فيها هذه الملحوظة في يوم واحد عن هذا التطاول المزعوم. قال له الصديق بنبرة انتصار:

أرأيت؟

ولكن كيف؟! أنا لست في السابعة عشرة من عمري!

لست أدري!

ربّما أنتم من قصرتم؟!

قالها ممازحاً فضحك الصديق قائلاً:

قادر على كلّ شيء. حسناً. أراك قريباً.

حيّاه ومضى كلّ منهما في طريقه. فكّر في أن يذهب إلى قهوة معتادة، وقد استبدّت به أفكار أكثر اعتياديّة. جلس على كرسيّ المقهى وأحضر له النادل طلبه المعتاد دون حاجة إلى قول شيء. أخذ رشفة من الشاي بالنعناع، ثمّ رشفتين، ووجد نفسه ينادي على النادل:

يا سعيد.. زبادي خلّاط..

نظر إليه سعيد، ثمّ إلى كوب الشاي الساخن، ثمّ تحرّك بطريقته المعتادة بين الزبائن. مدّ ساقيه أمامه ونظر إليهما. تبدوان طبيعيّتين. لا، هما أطول قليلاً. لا لا هي تهيّؤات. تذكّر تلك الأيّام حين كان طفلاً قزماً،

ينظر بحسد إلى الأولاد الأطول منه. كان قصيراً بنحو ملحوظ، وبسبب ذلك صار عرضةً للاستهزاء اللفظيّ أو للعدوان الجسديّ. أطلقوا عليه كل الأسماء الممكنة لمثل هذا الوضع: بلية – زئرد – القزم – الأزعة – الـ... قاطعه صوت سعيد، قادماً من بعيد:

يا عم حسن.. كيف تحبّ السكر في الزبادي الخلّاط؟

تردّد لبرهة، ثمّ قال:

مثل الشاي، سكّر خفيف..

هزّ سعيد رأسه ثم قال شيئاً بلغة القهوجيّة للرجل الذي يعدّ الطلبات، بينما عاد حسن لأفكاره التي انقطعت متذكّراً كيف أصيب والده الراحل بالقلق، حتّى أخذه إلى طبيب مشهور، طمأن الأب وقال له إنّ الفتى سيكبر بسرعة. تحدث مثل هذه الأشياء لبعض من الأولاد؛ يتأخّر نموّهم ثمّ يطولون فجأة.

لم يكن والده طويلاً، وربّما كان أمله الخفيّ أن يعقبه ابن طويل. أمل أن يكون مثل أخواله الذين تميّزوا بطول القامة واللسان. بدا كأنّ حسن هو انتصار أبيه على القدر، ولكنّ قلقاً ما استبدّ بالوالد من أن يصير الولد أقصر منه. كان الطبيب على حقّ، وحدث في نهاية مرحلة الثانوية أن استطال الفتى بنحو ملحوظ فعلاً. يتذكّر، كحلم قديم، شعوراً بالألم عند منبتي فخذيه. لم يكن محموماً بقدر الحمّى التي انتابت جسده عندما بدأ بالبلوغ، ولكنّه يتذكّر مثل هذا الألم الهادئ، الشاحب، كعضلة مرهقة.

وجد في هذه الذكرى سبباً آخر لنفي مسألة الطول. لم يشعر بهذا الألم اليوم، ولا قبل اليوم، ولا منذ شهر ولا منذ سنين طويلة. بدا الموضوع كمزحة صغيرة تمضي في سياق حياة رتيبة، حتّى إن ازدحمت المدينة العتيقة بأقاويل كثيرة عن مستقبل مظلم. أصبح غير آبه، وغمس نفسه في قراءة الروايات التي لا تهمّ أحداً، والنوم في مقرّ عمله كما فعل اليوم، كمصاب من مصابي الحادث الجلل الذي ضرب البلاد قبل سنين. هكذا انعزل عن سبب وظيفته، دخل في شرنقة يعرفها جيّداً ويألفها جيّداً،

لأنّه، بشيءٍ من الواقعيّة، كان يدرك أن هذه الوظيفة هي من كرامات أمّه.

بلى، لقد ازداد طولاً ولكن ليس بكثير، لقد أصبح أطول من أبيه قليلاً فحسب. فرح الأب أوّلاً بالشارب الذي خُطّ في وجه حسن، الابن الوحيد، ثمّ بدا مرتاحاً حين ازداد طولاً، ثمّ مات وهو في أولى سنني دراسته الجامعيّة، وكأنّ سبب وجوده قد انقضى، وكأنّه كان يعيش على هذا القلق الوجوديّ الذي انتابه بشأن طول ابنه، وعندما ارتاح، مات.

هكذا مات الأب دون أن يعرف احتماليّة كونه أطول بصورة ملحوظة، ومات دون أن يعلم أنّه قد أصبح له معاش مفتخر ربّما سيكفيه لشراء الخبز الحافي بعد ثلاثين من السنين، وتأمين صحّي في مستشفى يرعى فيه الحشرات والفئران والثعابين.

أمّه تقصر عن أبيه، سيّدة هادئة بمعاش مبكر ومتابعة مستديمة لفقرات الطبخ ومحاولات متقطّعة للصلاة. كانت سيّدة طيّبة لها محبّوها، ومنهنّ صديقة لها زوج منفذ، يجيد فنّ الورع وتسبيل العيون والفخر بكونه من خدمة الست، قاصداً ابنة النبي في مسجدها غير البعيد جدّاً عن حيّهما، ومن أجل ذلك هو يؤدّي الخير لأهله، وربّما لغير أهله أيضاً، كيفما يرى. المهم أنّ هذا الرجل قد توسّط لحصول حسن على وظيفة في وزارة التموين. وظيفة كتابيّة مملّة، ذات راتب قليل، لكنّ المعاش كان يهمّ الأمّ. الأمان الماديّ في الكبر كما كانت تقول، ثمّ تردف أنّها تخاف عليه من البهدلة بعدها.

خدعة. هي محض خدعة، كما هي أسطورة طوله المزعوم. نظر إلى ساقيه الممتدّتين أمامه ثانية بعدما ارتشف آخر جرعات الزبادي المخفوق، ولفت نظره فجأة، شيء غريب: لقد انحسر طرف البنطال عن قدميه أكثر، كاشفاً عن جورب كان يخجل من الرسوم الطفوليّة فوقه.

إذن، لم يكن الأمر خدعة.

حين وقف أمام المرأة في حمّام بيته، رأى طرف ذقنه فحسب، هذه المرآة التي عادة ما يرى وجهه فيها بكامله.

كان هذا في صبيحة يوم جديد، بعد نوم قصير، تحت هاجس التفكير في هذا الحدث العجيب وإثر سلسلة محمومة من تجارب القياس لكلّ بنطال لديه، ما كان مضبوطاً على قياسه انحسر عن كعبيه بمسافة لا بأس بها، والطويل منها، الذي يحمل آثار الاهتراء بعد ثنيه، صار مضبوطاً الآن على مقاسه.

العجيب أيضاً أنّ مقاس خصره صار أعرض قليلاً، هكذا تحايل على البناطيل التي قصرت بإرخائها قليلاً تحت خصره. بنطاله لم يكن كذلك في القهوة، كان مضبوطاً على خصره. تذكّر سني المراهقة، حين كانوا يذهبون إلى هذا الشارع الشهير منذ الأربعينيات ليبتاعوا بناطيل الجينز، وأشهرها الليفايز. كيف كان يضطرّ لتقصير البنطال الذي يناسب خصره، لكنّه لا يناسب ساقيه. كان يصارع ليجد بنطالاً يناسبه. حتّى المعاطف والقمصان التي يراها فوق أجساد نجوم السينما، المشذّبة البرّاقة كما ينبغي على السياسيّين، حتّى هذه كان يعاني في إيجاد طول أكمامها المناسب، فكلّ ما يناسب عرضه كان يطول عن ذراعيه. بدا له الموضوع عجيباً، وخُيّل إليه في البداية أنّ جسده هو العجيب، ثمّ حادثه أحدهم في ما بعد، متفاخراً برحلته إلى الشمال البعيد، عن القياسات المختلفة لنفس قطعة الملابس.

وعندها قفزت إلى عقله فكرة جديدة، صار يجرّب قمصانه، الواحد تلو الآخر، وهاله أن امتدّت ذراعاه قليلاً إلى ما وراء أساور الكم.

أحضر سويتشيرت فضفاضةً عليه، كانت هديّة تقليديّة من قريب يعيش في بلاد البترول، وقف أمام المرآة القديمة التي لم تعد تعكس كلّ جسده، وابتعد قليلاً حتّى أمكنه رؤية جزئه العلويّ. بدت السويتشيرت مضبوطة عليه، وكأنّها صُنعت خصّيصاً له. لم يعد ذلك المراهق القصير الذي يرتدي ملابس كبيرة على مقاسه، والذي يخجل من الفتيات اللواتي يحببن نجوم الأفلام بملابسهم المهندمة وقصّات شعورهم المحكمة ونكاتهم المضحكة وكلامهم الرومانسي الرديء. لم يعد ذلك الشاب الذي يقرأ بتأسٍّ عن دراسات تقول إن الرجال الأطول قامة هم من

يحظون بالوظائف في أميركا. صار طويلاً، أو دعنا نقُل أطول، وصار أقرب إلى ناطحة السحاب منه إلى البيت الصغير ذي الأربعة طوابق، أو صار لامعاً مثل الإعلانات التي تحتفي بالأضخم والأكبر. أخذ ينظر للمرآة غير مصدّق، لبرهة.

وبالطبع، كرجل ير نفسه عقلانيّاً، قال لنفسه إنّها خدعة يلعبها عقله عليه، ربّما هي من أثر سيجارتي الحشيش اللتين دخّنهما منذ وقت قريب، أو هو تفسير أبسط وأكثر تفاهة: هو في حلم سيفيق منه. لا بدّ وأنّه كذلك، لأنّ مثل هذه الأشياء لا تحدث، ولا يمكنها أن تحدث. لقد مرّ بأمّه قبل قليل، جلس بجوارها، تعمّد الوقوف أمام التلفاز الذي تكبّل به عينيها، ولم تلحظ شيئاً ولم تكلّمه غير لتقول له أن يبتعد، كسيّدة لا تصبر على ما تريد ولا تصدّق كونه يتصرّف كطفل صغير.

هي أمّه، من ولدته، من تعرفه أفضل من نفسه، لم تقل شيئاً. هو حلم إذن.

استغرق في هذا التفكير قبل أن ينتبه إلى أنّ قدميه الآن تلمسان اللوح الخشبيّ في آخر السرير. أصابه شعور... بالفرح... ثم القلق..ثمّ.. نـ نام...

كنت أرى أمّي التي تجاهد لفتح عينيها وهي تحكي، لكنّها سلّمت أمرها لسلطان النوم هي الأخرى، كبطل حكايتها.

عندما فتحت الباب، رأيت وجهها المنحني، وخصلةً من شعر أصفر تسقط فوق جبينها من تحت منديل أسود.

دخلت بجسدها البض رغم الزمن، وعندما أحنيت رأسي تأدّباً، كعادة سخيفة منذ مراهقتي، كان يمكنني رؤية ساقيها البيضاوين تحت جيبتها. وعندما رفعته مجدّداً، بعدما سمحت لها بالمرور أوّلاً، ذهبت عيناي إلى مؤخّرتها المشدودة. قبل ما يقرب من عشرين عاماً، كنت أدعك ذكري

متخيّلاً هذه المؤخّرة مستقرّة فوق حجري. أحنيت رأسي مرّة أخرى حين توقّفت أمام باب حجرة أمّي، ونظرت إلى في تردّد أقرب للوجل. تقدّمتُ وفتحت الباب.

خطت إلى داخل الغرفة، كنت أنا أقول كلام الترحاب الفارغ، وهي مشغولة بالنظر إلى أمّي التي منحتها عينين كعيني السمك.

تمتمت هي الأخرى بكلام فارغ معتاد، تقدّمت من أمّي وانحنت فوقها مقبّلة إيّاها. استرقت نظرة أخرى.

كنت قد جهّزت مقعداً بجوار السرير، فبعضٌ من زملاء أمّي وأصدقائها وأقرباء بعيدين، قد أتوا قبلاً للسلام والتحيّة ولإبراز التعاطف المعتاد. بعضٌ قليل. بعضهم وراءه حكايات، وبعضهم وراءه أشباح. سألت السؤال المعتاد عن القهوة أو الشاي، وتلقّيت الإجابة المعتادة المتعفّفة، فعرّجت على عرض المياه الغازيّة أو العصير، فرجعت هي إلى مربّع القهوة، في ما يراه البعض تواضعاً وتأدّباً. تركت الباب مفتوحاً ومضيت إلى المطبخ، وأنا أفكّر في معبودة شبابي، أو هي واحدة من المعبودات. وجدت نفسي أتعجّب من احتفاظ جسدها بما يكفي لاعتباره جميلاً عفيّاً، رغم كلّ هذه السنين. قلت لنفسي هي أصغر من أمّي بما يقرب العقد. رأيتها مرّة، في بيتها، ملتفّة بإزار فوق قميص نومها، كانت تمضي متعجّلة في طريقها، ولم تنتبه لهذا اليافع الذي لمح منبت ثدييها. ربّما لم تنتبه هي أبداً، لأنّني كنت لها هذا الطفل المؤدّب الخجول، هو ذات الطفل ذو الشارب الخفيف الذي كان يختلي بنفسه متخيّلاً إيّاها في ملابس تُهيّأ للمضاجعة وأوضاع ساخنة. ليلى. اسمها الذي أنطقه عارياً بلا لقب، مثلما هو جسدها بعد قليل، محموماً برغبتي.

كانت قريبة من أمّي، وفي وقت ما في نهاية مراهقتي، وفي غمرة إهراق منيّي سدى، اختفت هي. لم تعد أمّي تردّ على مكالماتها. كانت توصيني دوماً بأن أقول إنّها في الخارج، وعندما بدأت بالاتصال في أوقات شبه متأخّرة، كانت توصيني بأن أردّ بأنّها نائمة. بعد قليل من الإصرار زحف التعوّد والموات، فاختفت من حياتنا. قابلنا زوجها مرّة من المرّات

ونحن ماضون في الشارع. رجل لا أتذكّره فعلاً، كان كهلاً نحيلاً ضئيلاً ذا سالفين طويلين كثيفين ورأس خفيف الشعر ونظّارة طبّية حديديّة. سلّم علينا باحترام ومودّة وبادلته أمّي السلام. بعث السلام لأبي فبعثت السلام لزوجته. توقّعت أن تتّصل لكنّها لم تفعل. فكّرت في أن أنتهز فرصة خلوّ المنزل لأهاتفها بينما أنا أستمني، أغيّر صوتي كي لا تتعرّف إليَّ، أقول لها كلّ ما وددت قوله، لكنّني كنت خائفاً، ربّما انكشفت، وعندما فكّرت في كيفيّة ردّها عليّ، بالتأوّهات والمناغشة، بينما هي تعبث بنفسها، انضمّ هذا إلى مجموعة التخيّلات التي تحلبني كلّ مساء، أو كلّما حانت الفرصة.

لم تتّصل إلّا بعد عقد ونصف، تقريباً. عندها سألتني عن الأحوال، وقالت إنّها قد سمعت بما حدث، وهل يمكن أن تأتي؟ قلت أهلاً وسهلاً. طلبت منّي أن أستشير أمّي وأبي، وبعد ثانية من الصمت أكملت حتّى يحدّدا الوقت المناسب للزيارة. أخبرت أبي وقلت لأمّي، كانت في قمّة تألّقها، تأكل العنب وتبتسم. صمتت تماماً ثم قالت لي أن دعها تأتي وقتما تريد. أخبرت أبي فهزّ رأسه، وغمغم، ربّما قال إنّ أمّي لا تعي شيئاً من الأساس، ثمّ قال حسناً. لم يكن هناك عندما أتت ليلى. طنط ليلى.

عندما قلتها وأنا أقدّم لها فنجان القهوة، ابتسمت، وقالت أيّ لقب هذا الذي أناديها به؟ أنا الآن رجل. نعم، رجل يشعر كأنّ وجهه يتضرّج بالحمرة كطفل. أحنيت وجهي ثانية، مبتسماً كأبله. ظللت واقفاً، أمّي تغمغم بكلمات لا معنى لها ولا رابط. قالت لي ليلى أن أجلس. جلست على طرف السرير. تبادلنا كلاماً عن حالة أمّي، ثم عَرّجت على أحوالي. تأسّفت على طلاقي، وقالت إنّ الوحدة صعبة، هي تفهم، لقد مات زوجها قبل سنوات، وهي بلا أطفال. استدركت ودعت لأمّي بطول العمر. شكرتها.

فرغ الفنجان وفرغ الوقت. قامت مهندمة جونلتها فوق فخذين بديعتين. اصطحبتها إلى الخارج، طلبت منّي رقم هاتفي المحمول لتتمكّن من

السؤال عن أمّي بسهولة. أعطيتها إيّاه، طبعاً. رجعت إلى الغرفة، وفور أن دخلت سمعت صوت أمّي:

كنت أريد أن أراها. مرّت سنون طويلة.. أليس كذلك؟ بلى.. أين أبوك؟ خرج.

شردت لثانية. كان إلهاً. كرّرت. من الصعب عليّ أن أراه كذلك. ردّدت. أنت حرّ. دعك من هذا، لِمَ خاصمتِ ليلى؟!

أكملت وكأنّها لا تسمعني، وعيناها معلّقتان في الهواء: لا يجب عليك أن تقسو على أبيك. لقد نال ما فيه الكفاية. جدّه الأكبر كان سبباً في سقوط هذا البلد في يوم من الأيّام. يكفيه هذا. أفندم؟ في يوم بعيد، بعيد جداً، أتى الفرس إلى هذه الأرض. هذه الأرض المجيدة. جيش عرمرم. لا بداية له ولا آخر. سألوا أنفسهم: كيف يمكننا هزيمة المصريّين؟ كيف يمكننا أن ندخل هذه الأرض الخصيبة؟ المصريّون ذوو جيش قويّ. ماذا عسانا نفعل؟! ظلّوا في حيرة، إلى أن تفتّق ذهن أحدهم عن فكرة، بخّتها الحيّة في أذنه. وعندما أتى الفرس أخيراً، وتأهّب المصريّون لمواجهتهم، فوجئوا بجيش من القطط أمامهم، يخوّفهم الفرس فيعدون نحو المصريّين. لا يمكن لمصري أن يقتل قطة، من قتل قطّة فسيُقتل في التوّ، إن اشتعل بيت، فلا بدّ من أن تُنقذ القطط أولاً، لا البشر. القطط آلهة. هكذا تجمّد المصريّون، ثمّ تراجعوا، ومن لم تعدُ قطّة نحوه، فوجئ بدرع الفرس مزداناً بوشم القطط. انهارت البلاد في غير وقت.

وما علاقة ذلك بأبي؟!

جدّ أبيك الأكبر هو القطّ الأول الذي تسلّل إلى سفينة مغادرة البلاد. كان المصريّون يحذّرون من خروج القطط من مصر، ولكنّه هرب، ومن نسله أتت جميع القطط التي جاء بها الفرس. من نسله أتت هذه القطط الطويلة الشعر الزرقاء العينين.

وما ذنب أبي وحده؟! القطط قطط.

صحيح، لكنّ جدةً لي أعادت المجد لبني جنسنا. وكيف هذا؟ سأقول لك: عندما أراد الخديوي حفر هذه القناة ما بين البحرين، قدم الخير

والسعد، كانت الجرذان قد توحّشت، كانت تأكل أصابع العمّال في يد أو في قدم، ربّما استطعمت لحم البشر، ولحم القطط الذين استحالوا بشراً، فصارت تحاول قضم كامل اليد أو كامل القدم، ربلة الساق، الكتف. كان الأمر مستعصياً وخطيراً، والعمّال لا يذوقون طعم النوم، فلا يمكنهم العمل. منهم من هرب، ومنهم من صار يفكّر في الهرب، ليس من سوط الخديويّ وحده، بل من فكوك الجرذان أيضاً. ثمّ أتت لواحد من متعهّدي العمّال فكرة: أتى بأجولة لا حصر لها من القطط، انتشرت على طول منطقة الحفر، لتبدأ أكثر المهام قداسة في الأرض التي بدأنا منها. طارد أجدادي الجرذان في حرب شرسة، بعضها قد توحّش لدرجة أن فكّر في الاشتباك معها بدلاً من العدو والذعر. لكنّك تعرف النتيجة في النهاية.

وجدّتك الكبرى هي الأمّ لكل هؤلاء؟

نعم. جدّ أبيك الأكبر سبب في احتلال، وجدّتي الكبرى سبب في رخاء. لكنّ البعض يقول إنّ القناة هي سبب احتلال مصر. عابثتها. زمّت فمها غاضبة. هذا كلام المغفّلين، لم يحتج أحد إلى القناة ليحتلّ هذه البلد، تأمّل فقط في الفائدة التي جلبتها القناة لهذه الأرض ولسائر الناس. قالت بسخط قبل أن تلين لهجتها فجأة. ثمّ إنّ السبب يعود لقطّة فارسيّة أيضاً. أيّ قطّة فارسيّة؟! هيه.. اسمع.. هي بطلة لدينا جميعاً، لكنّها لم تنسَ أصلها أو تتنكّر له. لا أفهم. تمكّنت القرود والضباع من هذه الأرض، فشنّت علينا حرباً. حربٌ يعرفها البشر لكنّهم لا يعرفون ما وراءها. حين قُتلت جميع القطط في الشمال، قالوا الشيطان، قالوا نحن، أولياء الجداء، ومن كان من بني جلدتنا وتحوّل، مثلي، كانوا يقتلونه، كانوا يقتلون النساء، بالذات النساء، من يستطعن الولادة، قالوا ساحرات، قالوا يجتمعن في كلّ سنة بالجدي الأكبر. لكنّهم نالوا ما يستحقون. عندما قتلونا انتشرت الجرذان، ومن الجرذان جاء الطاعون، وصار البشر يتساقطون. أدرك المتحوّلون بفزع أنّ أجسادهم البشريّة لا تستطيع مقاومة الطاعون كما اعتادوا. ندموا وأوقفوا المحرقة، لا من أجل البشر، بل من أجل من أصبحوا بشراً. وعندما عدنا ونظّفنا البلاد، ما كان جزاؤنا؟!

عادوا لقتلنا ثانيةً، فعاد الطاعون ثانية، فكفّوا، لكنّهم استمروا في القول إنّنا أصحاب الجداء. نحن! في النهاية، تسلّلت قطّة فارسية إلى حديقة ملكة الدنيا، بشريّة ساذجة من نسل بشريّ، تمسّحت فيها، هرهرت وتلاعبت، رقّ قلب الملكة، وعندما رقّ انفتحت الدنيا، بدأ الموضوع بالنساء، مقلّدات الملكة، ثمّ تمكّن بنو جلدتنا من التقدّم بعدها بعقود طويلة، فصار حبّ القطط من شيم الرجال أيضاً، كما كان الأمر قبلاً. تمكّن بنو جلدتنا من الحركة بحريّة، ومن الكلام بحريّة، ومن تكوين الجماعات السريّة التي تصدّت لجماعات القرود والجداء، كانت بطلة كلّ قطط الدنيا، ولكنّها لم تنس حقدها القديم، فهمست في أذن الملكة أن تهمس في أذن وزيرها: القناة. هذه الأرض مرّة أخرى. اشتروا بعضها بالمال، ثم هيمنوا عليها وعلى البلاد بالأسطول والبنادق.

بطلة خائنة؟

لا أبطال هنا.

صمتُّ للحظة، ثم عدتُ للمعابثة: اعترفي بأنّك تحقدين على القطط الفارسيّة لجمالها، هذا حقد معتاد من قطّة بلديّة! أتعرف؟ إن لم تصمت فسأقذفك بهذا الخفّ تحت السرير!

ضحكتُ. أكملت هي: وبالمناسبة، ليلى تعرف، مثلما أنا أعرف، أنّك تريدها. هي حيّة وأنا قطّة، كلتانا يمكننا أن نشتمّك.

توقّفت عن الضحك، وسقطت في صمت خجول. أنت لم تكملي لي أبداً حكاية حسن.. ما الذي حدث؟! سألتها.

كنّا نجلس في غرفتها في الوقت الفارغ الثقيل بين العصر والمساء، هذا الوقت الذي كنت أجتنبه بنوم ثقيل، لأصحو عدواً في ليل مستقرّ. كنت.

عدّلت الغطاء فوق جسدها، قالت: دعني أخبرك عن ياسمين. ياسمين؟! نعم. طيّب...

لم أعلم أيّ ياسمين، لكنّي ذكّرت نفسي بأنّني لم أعلم بالفعل أيّ حسن كذلك.

«ماهي خبراتك السابقة؟!».

سألها وهو ينظر إليها بتدقيق، إلى عينيها بالضبط. حاولت أن تثبّت عينيها في عينيه لوهلة، وهي تجيب عن السؤال. لا توجد خبرات كثيرة، آخر وظيفة هي مسؤولة حسابات في محلّ كبير في إحدى المناطق الفخمة. كانت تجمّل الإجابة، لأنّها كانت في الحقيقة تجلس وراء الخزينة. الكاشير كما يقولون. واصلت النظر إليه، ابتسم ابتسامة العارف بالأمور، هي خرّيجة المدرسة التجاريّة ثم معهد متوسّط فحسب، فكيف لها بوظيفة يعهدون بها عادةً إلى محاسبين أو حتّى إلى شركات محاسبة. نظر مرّة أخرى إلى ورقة سيرتها الذاتيّة مبتسماً. هي العدسات الملوّنة، هي تعرف.

بذلت، كبعض من بنات جيلها، أو ربّما أغلبهنّ، جهوداً جبّارة لتصبح قوقازية، مثل الممثّلات الجميلات اللواتي يملأن السينمات، أو يطللن عليهنّ من شاشات قنوات الأفلام. كانت تشتري مساحيق كشط البشرة، تضع العدسات اللاصقة، تصبغ شعرها إلى الأشقر بانتظام، خاصة تلك الخصل المكويّة بعناية التي تتركها لتخرج من تحت حجابها. ومثل بنات جيلها أيضاً، لم يمتدّ هذا الولع للحفاظ على جسد رشيق، ولِمَ ذلك بينما يتيه رجال بلادها بالقوقازيّات الممتلئات؟!

كانت تعلم أنّ مظهرها هو المدخل لهذه الوظيفة: سكرتيرة شخصية في إحدى الشركات. لم تكن حادّة الذكاء، ولم يكن إدراك ذلك بحاجة إلى ذكاء حادّ. لقد أطال النظر إلى وجهها بعدما تفحّص جسدها قبل الجلوس إلى المقعد في مواجهة مكتبه.

مطّ شفتيه وقال:

متى تكونين مستعدّة للعمل يا أستاذة..

نظر في الورقة أمامه وتابع:

ياسمين..؟

يمكنني العمل بدءاً من يوم غد إن أحببت.
جميل. أعطينا مهلة أسبوع وسنحادثك.

كانت هذه من نوعيّة الإجابات المحبطة الاعتياديّة، لكنّها وجدت شيئاً من الأمل غير المعهود يتداخل مع الإحباط المعتاد، ساعدها هذا على السلام عليه بهدوء، دون إبراز إحباطها الذي يفرّ منها، أو تتركه هي ليفرّ منها، ليقفز في وجه الممتحن. زاد من هذا ضغطه على يدها، لتتركه وتمشي ببطء خارجة. في الممرّ، شعرت برغبة في دخول الحمّام. دخلت وهي تفكّر، هي تعلم أنّ مظهرها ليس بالمستوى المطلوب بالضبط، هي جميلة ولا بأس بها، ولكنّ شركة مثل هذه تحتاج إلى مظهر آخر، أقرب للفاتنات اللواتي تراهنّ في التلفزيون، ولكن حتّى هذه الأفكار لم تؤثّر على تفاؤلها، لم تكن فاتنة فتستجلب غضب زوجة غيورة ولا قبيحة فتستجلب نفور الزوج، بل كانت هناك العديد من الملاحظات التي سألتها في الأسابيع الفائتة، كيف أصبحت أكثر جمالاً وجاذبيّة. تضعها الصديقات والقريبات في الصيغة المعتادة، وجهك منير، بينما يضعها الشباب في الشارع في صيغ لا مجال لذكرها هنا. بالطبع كانت تنال المعاكسات من قبل، من شباب لا يتركون كلبة مثلما كانت تقول هي وصديقاتها ضاحكات، ولكنّها لاحظت ازدياد المعاكسات الآن.

وكأنثى طبيعية في مثل ظروف حياتها، فقد عزت التطوّر إلى أنّها غيّرت بعضاً من الملبس، أو وضعت مكياجاً مختلفاً، لكنّها لم تكن الحالة بالضبط مثلما فسّرت أمّها الموضوع تفسيراً معتاداً، فصارت تسألها أكثر فأكثر عن مواعيدها وعمّن تقابل، قبل أن تفقد صبرها وحيطتها، لتسأل إن كانت تقابل أحدهم. أقسمت لها ثلاثة، وهي صادقة هذه المرّة، أنّها لا تقابل أحداً. كانت أمّها متشكّكة دائماً، ولك أن تتخيّل مدى المجهود الذي بذلته في الاستقصاء عن مواعيدها، ومدى المجهود الذي بذلته ياسمين في أن تدفع مثل هذه الأفكار بعيداً. كان المنطق بسيطاً، وربّما بدائيّاً: ما يحرّك الناس هو المال والجنس، وفي حالة الفتيات في شبابهنّ، الاثنان

موجودان بسلاسة كبيرة. لكنّها على حق، أليس كذلك؟! نظرت إلى وجهها في المرآة، نعم، هي تبدو أجمل، ولكنّها لم تحدّد السبب بالضبط، فقط لاحظت أن عينيها تبدوان أكثر زرقةً من المعتاد، هي تستخدم عدسات يختلط فيها الأزرق بالبنّي، فتمنحها مزيجاً يلفت الأنظار، ولكنّها ترى الآن الأزرق فقط. هل نسيت وضعها صباحاً؟! لقد أوصتها صديقتها شيماء بشرائها من مركز قريب للعدسات اللاصقة، ومدحت فيه كثيراً، والآن العدسات تفقد بعضاً من لونها قبل مرور شهرين؟!

لم تحسّ بألم في عينيها، وأخذت تنظر إليهما وقد بدأ يعجبها اللون الوحيد. تجاهلت الموضوع برمّته وحملت حقيبتها، لا بدّ لها من أن تلحق بميعادها الاعتباطي في البيت، وإلّا منحتها أمّها موشّحاً معتاداً.

قرّرت ألّا تقول لأمّها عن موضوع فساد العدسات، لأنّها ستستغلّ الموضوع كالعادة في انتقاد مثل هذه الأشياء من الأساس، فقد كانت أمّها شخصيّة مولعة بتصدير آرائها. تجلس أمام مذيعي التوك شو، تنتقدهم جميعاً بقسوة يرافقها في المقابل حنوّ وانبهار غير مستغربين بالشيخ الراحل في حديثه الأسبوعي المُعاد. معتدّة هي بكونها موظّفة سابقة ناجحة حصلت على الثانوية، لكنّها اضطرّت لأن تتّجه للعمل مبكراً. أمّها، برأيها الشخصيّ، مولعة بالنكد؛ لطالما تذكّرها بالحمل الثقيل وبأنّها أمّها وأبوها معاً بعدما مات الأب قبل سنين. هذا هو السبب الذي يجعلها تتردّد في أن تخبرها بأنّ حمادة يودّ التقدّم لها مرّة ثانية، حمادة صاحب محل الموبايلات على ناصية حارتهم الذي كان يعجبها ويقلقها في ذات الوقت حين يتمايل بقامته الطويلة وابتسامته الساحرة، محوّلاً شكوكها عن النساء في حياته إلى ضحك مستمتع طويل، فوق مقعدهما في حديقة الحيوان أو في مكان قصيّ من حديقة الأزهر.

تقدّم حمادة لها مرّة، ولم يمانع عبد الله، أخوها الطويل اليد واللسان والذي تجيد أمّها تهديدها به، لكنّ الأم لم يعجبها عرض حمادة باستئجار شقة في دار السلام، وكلّما عبست ياسمين تقول لها الأم إنها قد أبلغته من البداية، عبر المراسيل العديدة التي ابتعثتها، رفضها اقتراحه بأن يقيما

في بيت والدته، وطالبته بشقّة يمتلكها، وكونه يتحدّث الآن عن إيجار جديد فهو يستهين بها وبرأيها وبياسمين. من أين يحصل حمادة على شقّة تمليك؟ في هذه الأيّام التي يُشوى فيها الجميع فوق نار هادئة؟ سألت نفسها، ثمّ أردفت أمّي سيّدة صعبة.

أخذت مقعدها وراء السائق في الميكروباص، لم تجد مكاناً إلّا في الأريكة الأولى، وبذلك تحمّلت عبء توصيل الأجرة له أكثر من مرّة، لكنّ هذا يظلّ أفضل من الجلوس إلى جواره، أو إلى جوار زملائه من السائقين الذين إن لم يمدّوا يداً، بحجّة الفيتيس، فلسوف يقذفون بلسان، غالباً.

في حارتها، وكما في كل شارع مشت مقطّبةً. فليلتها ستكون سوداء إن رآها أخوها عبد الله تضحك أو تبتسم في الشارع. سرحت في أحلامها بنيل الوظيفة، وتركت نفسها لتخيّلات عن أوجه إنفاق هذا المرتّب، وفخر حمادة بها.

يحدجها حمادة بنظرة سريعة وهي داخلة إلى الحارة. تصل إلى البيت. تعدّ لأمّها الغداء والشاي، تنهمك في محادثات طويلة مع صديقتها صفاء، التي عادة ما تثير امتعاض الأمّ. انتبهت إلى أنّها لم تخلع عدساتها، بينما الأمّ تتأهّب للنوم، وبينما عبد الله وأبوها سارحان في ملكوت الله، في شارع هنا أو هناك. عندما دلفت إلى الحمّام، رمقت العدستين الزرقاوين الصافيتين، قبل أن تفتح غطاء العدسات. ولدهشتها، وجدت زوجاً من العدسات يمتزج بهما الأزرق والبنّي. لم تصدّق نفسها، ورفعت عينيها، متفاجئة، إلى اللون الازرق الذي استقرّ في عينيها.

و....؟؟؟!

قلت وأنا في قمّة فضولي. هزّت رأسها وقالت: لا يوجد و. أنت تعلم ما في الأمر الآن. حسن تتطاول قامته وياسمين تتحوّل عيناها إلى زرقة. نعم. وماذا بعد؟! لا توجد حكايات أخرى عنهما، ما الذي سيحدث حين نتغيّر؟ نترك القديم. أو نحنّ إليه. محتمل. لكن هذا هو كلّ شيء. لقد تركا القديم.

ولكن...

قاطعتني قائلة إنّني يجب أن أمضي لشأني، حلّ الليل، وهي تعرف أنّني أتوق للخروج؛ منذ رجعَت إلى البيت وأنا مستقرّ فيه. اخرج وقابل أصدقاءك، واتركني لأنام، قالت.

أخبرني.. ما الذي جرى لهما؟!

قلت للكلب الذي نظر إليّ بلا فهم. كنت جالساً في الشارع الجانبيّ المعتم، على رصيف متهالك إلى حائط بذيء. لا أعلم كم الساعة، لكنّها بعد الفجر. أظنّ.

يعبر المارّة القليلون، ينظرون إليّ، ثم يمضون. أتى أحدهم، وفي ما يبدو كان يحمل سيجارة ملفوفة، ليُفاجأ بي في المساحة القليلة بين عربتين. نظر إلى الزجاجة في يدي ثم قال صباح الفلّ ومضى. ربّما يظنّونني شحّاذاً لكنّ ملابسي تنفي هذا بعد الثانية الأولى. أنا مجرّد سكّير. فاشل سكّير. هذا هو كلّ شيء.

قبل قليل أتى هذا الكلب. تبع زمرته في النباح على أحدهم، ثمّ نظر إليّ. كان بجواري كيس أسود تفوح منه رائحة الجبن الرومي. أرخى اذنيه وبدأ بهزّ ذيله. ألقمته شريحتين من الجبن، ثمّ خطر لي أنّه قد يكون شخصاً ما قبل أن يستطيل خطمه ويبرز له ذيل من مؤخّرته. قد يكون اسمه سعيد أو بسطاويسي، ربّما هرب من هذه الحياة إلى حياة أغرب. نظرت في عينيه البنّيتين، وهو يرمقني بحذر ورجاء. هذه هي عيون البشر. لا يمكنني أن أتخيّل أمّي بعينيْ قطّة. قد تكون منهم، يا كلب الشارع الآبق؟! لو أنّ هذا صحيح، أخبرني، ما الذي جرى لهما؟! الشاب الذي استطال والفتاة التي تلوّنت، حتّى اغتربا. أخبرني. لعلّك تعلم. تخبرني أمّي أنّكم تعلمون كلّ شيء. ربّما كان لك قريب هو من أنقذ أبي وأمّي في وسط البلد من هجوم الذئاب والضباع. نعم، أنتم مثل البشر، تتفاخرون بهذه الأشياء، وتستحون من أشياء أخرى. جدّ أبي الخائن وجدّة أمّي التي أنقذت القناة. نعم نعم.

مددت يدي بلا وجل، وبلا سرعة مبالغ فيها. كنت سكران، فكنت مقداماً وبطيئاً في آن واحد. ربّتّ رأسه. داعبت ما وراء أذنيه وأسفل فمه. استكان.

هل هي حياة أسهل يا صديقي؟ نعم نعم. دعك من سيرة الشاب والفتاة. إن أردت الحق، فهما أيضاً هنا في سؤالي. أقصد، هل هي حياة أفضل؟! أمّي تحب أن تكون قطّة، حتّى جعلت القطط تشاهد التلفاز في مكان ما تحت الأرض. دعك من هذا، لم يفهمه حتّى الجرسون في البار. أنا أقول إنها حياة أغرب. ما هو الشيء البديع في كونك تعدو في الشواع، مطارداً، ممتلئاً بالقمل، شاعراً بالجوع، مكشوفاً لتحرّش البشر والكلاب الأقوى.

مهلاً، لا تمضِ بعيداً. أنا فعلاً أسألك. لو كنت إنساناً، فهل وددت أن تكون كلباً؟! ودّ الفتى والفتاة أن يكونا بشراً مختلفين، لكن كان عليهما المغادرة، ربّما لم يسمع أحد عنهما بعد ذلك. هل من الأفضل أن أكون كلباً؟! أخبرني. طيّب طيّب. هاك شريحتين أخريين. أنا فقط أقول، العقل قد يموّه كلّ هذا. قد يضع لكلّ شيء معنى. قد يخبرنا أنّ كلّ هذا الشقاء لشيء. يمكنه أن يقول لنا إنّه مطلوب في ذاته. الشقاء المقدّس، رحلة التطهّر، التسامي، الخراء. أتعلم؟ يمكنه حتّى أن يحاول إقناعنا بأنّ هذا ليس شقاءً من أصله. إن كنت كلباً فلن تفهم شيئاً سوى هذه المشاعر الممضّة. هذه المشاعر المؤلمة. لا لا، لا تخف. لن أبكي. كابوس هو أن أتحوّل إلى سكّير بكّاء. صحيح أنّني كنت أتحدّث إلى الله عادة ولكنّني أتحدّث الآن إلى كلب، لكن هذا ليس سيّئاً جدّاً. لا لا، لا أقصد إساءة أبداً. لا تمضِ بعيداً. المهم، أترى؟! أنا لا أبكي. جيّد أن تكون إنساناً يمكنه أن يسيطر على بكائه.

«بطاقتك».

رفعت بصري. وجدت شخصاً بشاربين وعينين لامعتين.

سأسامحك. قالوا لي إنّك لم تأتِ لأنّك كنت في القسم.

فوجئت بما قالت. صمتٌ تماماً. ليلة ليس بالشيء الكثير. كلّ الناس معرّضون لهذا. من أخبرك؟! ليس هذا بالأمر المهم. لا، لا بدّ من أن تخبريني، لا يمكنه أن يخبرك بذلك لأنّه أخرجني، هذا كثير. لا، ليس أخاك.

من إذن؟!

شردت ببصرها ولم تجب. أمّي؟! أتعلم، كلّنا يمكننا أن يعرف كلّ منّا الآخر، أحياناً يصنع بعضنا جماعات يخاف منها البشر، يقولون إنّنا نفعل كذا وكذا، وإنّنا ننتوي كذا وكذا، وفي النهاية، يستغلّ القرود هذا الخوف. قالت بصوتها الهادئ. هل أخبرتك جماعتك إذن؟! أتعلم، من فوائد موقفي هذا أن أَلِفَتني العصافير، هي تعرف ما كنت، تطير حتّى من وجهي قبل أن أقترب. يمكنني شمّ رائحتها قبل أن أراها، يمكن لأذنيّ سماع رفرفة أجنحتها المبتعدة فزعاً. لا أبالي، يمكنني منذ أربعين عاماً أن آكل الحمام نفسه، مطهوّاً. ما جعل الإنسان إنساناً هو تلك الصدفة التي أحرقت كهفه، فشوت اللحم، واكتشف طيبها بعد عبورها بالجحيم. تعلم تلك العصافير أنّ منّا من يحنّ إلى مذاق اللحم القديم، بعضنا يترك الدماء قليلاً في الشيّ، وبعضنا يفضّل أكل أكباد الجداء والخراف نيئةً بعد الذبح مباشرة.

تألّقت عيناها وهي تنظر إليّ. الجداء، قالت.

المهمّ، في الأيّام الأخيرة يتردّد عليّ عصفور جميل، لون جسده رماديّ مخطّط بخطوط سوداء بديعة. يقف هنا على إطار الشبّاك. نتسامر كثيراً بينما أنتظرك. تنام أنت كثيراً في الصباح. يمكنه أن يعرف أنّني لست بخطر عليه، ليس بعد الآن. هل تتذكّر عصافير صديقتي ألفت؟! كانت تفزع جدّاً كلّما زرتها، وهي في قفص، لا يمكنني الوصول إليها. كم كانت غبيّة. ماتت بعد فترة قصيرة. ظنّت ألفت أنّ هذا هو المعتاد. العصافير في القفص تموت دوماً. لم أخبرها أبداً بالحقيقة.

إذن العصفورة هي من أخبرتك!

تضحك. أحبّ أمّي حين تضحك. أحبّ أمّي في كلّ حال.

دعك من هذا، فقط ضع بعض الماء والحبوب للعصفور. العصفورة! قلت ممازحاً. لقد غمرتني هذه العصفورة بجمائلها منذ كنت صغيراً. هيه! لن تفهم أنت أبداً، لكنّني أحسدكم. من نحن؟! المختلطون. وُلدتم بشراً لحيوانات سابقة. لكم مثيل، الحيوانات التي وُلدت لبشر سابقين. جميعكم بائس. جميعكم لا تفهمون أيّ شيء بالضبط. يطاردكم القلق والتعب. يأتيكم الحدس ولا تصدّقونه، تعيشون في العالم ولا تصدّقونه، لن تفهم يا صغيري. لن تفهم أبداً.

أنتِ محقّة. أنا لا أفهم أيّ شيء. ولكن، ألسنا جميعاً كذلك؟!

ساد صمت. جاءني خاطر.

ولكنّكم مختلطون أيضاً. ما الذي تعنيه؟! ألم تقولي إنكِ وأبي قد رجعتما قطّين يهربان من وجه الذئاب وسط المدينة؟! نعم، صحيح، لكنّنا قطّان من البداية. قطّان في جسديْ بشر.. نعلم ذلك. نفهم ذلك. صمتت قليلاً. ربّما تعلم ما الذي يحصل لقطط الصعيد البيضاء.

ما الذي يحدث لقطط الصعيد البيضاء؟!

يقولون أحياناً إن هناك من يلتقط هذه اللحظة السحريّة حين يستطيل جسد القط، وتنبت له أقدام البشر.

في السنين المئة الأخيرة من حياة البشر، صار إدخالهم إلى المصحّات ضروريّاً. يقولون إنّ هذه اللحظة تُذهب العقل. يجوس القطّ الذي صار بشراً في القرية في ليالٍ ثلاث، لا يعلم أحد أين يذهب، ولكنّهم فجأة يرون القط المعهود في صباح يوم رابع. قد يكون مستلقياً بجوار الغيط، أو غير بعيد عن ناصية طريق مترب، أو على سورٍ بعيدٍ لوجيه ما. هو يستقرّ ويهزّ ذيله أحياناً، ولكنّه دوماً يرمق المارّة بنظرات يتجنّبونها مثلما يتجنّبون الموتى. حتّى حين يغمض عينيه ويدخل في صمته المقدّس الطويل، يتخيّل بعضهم أنّ هذا الشيطان يفكّر في ما سيفعله في الليالي الثلاث المقبلات.

دوماً عند ظهور الهلال. يقولون.

من اكتشفها في زمان بعيد بعيد، صبيّ يُدعى بدر. كان بدر مولعاً بالقمر الذي سُمِّي باسمه عند الاكتمال، فكان يتسلّل من بيت أهله ليجلس على التراب، رامقاً الصخرة المنيرة في السماء، وحينها رآها. قطّة بيضاء ينبت من بين فرائها ثديان. ويتجمّع فراؤها عند رأسها ليستطيل شعراً أشقر كثيفاً بهيّاً، يعكس نور الهلال شمساً. يتألّق جسدها الأبيض البضّ في عتمة الليل. تومض عيناها الزرقاوان. رأته كما رآها. استدار فخذها الرشيق تجاهه.

اقتربت منه، بهيّة في عريها، بينما هو ميت في سكون. جلست.

لم يضع بدر غير أنّه أضاع السرّ.

قالت لي محدّقة في وجهي. كدت أقول لها إنّها قد أخبرتني سرّها. ثم صمتُّ. أكملت هي.

قال لصفيّ والصفيّ أخبر صفيّاً، ثمّ صارت أغلب القرية تعرف، ثمّ صار أغلب الصعيد يعرف، ثم صار بعض أهل البلاد يعرفون، ثمّ تسامر بعضهم مع التجّار الذين يأتون من الشمال، مانحين السلطان وفرسانه أجر العبور للشرق. لم يصدّقه بعضهم، وهؤلاء يمكن تمييزهم بسهولة، البشر ذوو الملابس والعمائم والقبّعات. صدّقه البعض الآخر، المجانين، ونحن. منذ وقت طويل، طويل، ونحن ننكر أنّنا يمكننا الرجوع إلى حالتنا الحيوانيّة. تصلنا الأخبار همساً، يمرّ بعضنا بالتجربة، ولكن لا يتكلّم أحد. في مقرّ جماعاتنا التي يخشاها البشر والقرود، أو يكون كبراؤنا يهمسون بأنّ هذا مستحيل، مستحيل منذ بدء الخليقة. ولكن، ها هو الإنسان، بدر، قد قال ذلك. هناك منّا من يتحوّلون حين يصير القمر هلالاً.

ومن شكّ في الأمر، يستوقفه ما يحكيه بدر: كان بدر يتلو الأسرار، يقول الحقائق التي تستغربها القرية. بدا كأنّه ساحر أو عرّاف، وعندما يسألونه يقول: أخبرتني القطّة. ومن يعرف غير القطط التي تتسلّق الجدران، والتي تعتلي أسطح البيوت، والتي تسمع دبيب النمل؟!

تحرّك، واختفت القطط البيضاء. امتزجت دماؤها بمياه النبيل. لم تنجُ

غير قطّة بدر، وعندما نجت، بدأ الناس بالقول إنّ هنالك امرأة ساحرة تبرز من بين الغيطان، وعبر الحقول، منادية على الرجال. الرجال الذين لن يعودوا أبداً. الرجال الذين كانوا ضباعاً، ونسوراً، وأحصنة، وحميراً. هم وحدهم.

ما الذي حصل لبدر؟

كان بدر ينفي أنّه لمس المرأة رغم كلّ جمالها، وصدّقوه. ولكنّه لمسها، وعرف السرّ. وعندما امتزج ماؤها بمائه، صار فيه ما انتفض في النهاية. صار عبيطاً يسير في القرية، واستمرّ في حكي كلّ الحكايات الصحيحة التي تخبره القطّة بها، لكنّ أحداً لم يعد يصدّقه. مات بدر، وماتت الحكاية، فعاشت القطط البيضاء مجدّداً، من نسل القطّة الهاربة وبدر المجنون.

اتّفقنا جميعاً على الصمت، وتكفّل البوم بوضع من يرى الأمر مجدّداً من البشر في المصحّات، إلّا ذريّة القطّة التي كتب بعضهم الكثير من الحكايات عن حكمة عبيط القرية.

وماذا عن القطط السوداء؟

نظرت إليّ باستهانة. هذه من أساطير البشر. قالت.

كانت شاشة هاتفي تلمع، ولكنّني لم أبالِ، كنت مشغولاً بعريها.

ليلى، طنط ليلى، السيدة ليلى، ترفع فخذيها البيضاوين فوق كتفيّ.

جاءني تلفونها بينما كنت في المقهى القريب من المنزل، كنت أقول لنفسي لا داعي للكحول. أتممت ترجمة موقع يضحك فيه كبار الحيتان على سمك صغير طامح في مضاربات المال. ابتعثت الدفعة الأخيرة من الصفحات وقلت لنفسي هي قهوة مضبوطة، لا أريد التحدّث مع الكلاب، وطبعاً ليس الضباع. جاء صوتها بكسل ما أعرفه جيّداً. قلت لها إنّني بخير، وأمّي بخير، فقالت لي إنّها ربّما لا تكون بخير.

اقترحت المقهى فاقترحت البار، وعندما كنّا نرشف الثمالة نظرت إليّ تلك النظرة التي أعرفها جيّداً. استأذنت في الذهاب إلى الحمّام، عادت وسألتني إن كان من الممكن أن أوصلها إلى البيت. أوصلتها. وحينما كانت تترنّح قليلاً، عندما عبرنا باب شقّتها في بناية بلا بوّاب، التقمت شفتيّ، وأسرعت أنا لإغلاق الباب.

اعتصرني فرجها المدمن المحنّك، بينما كنت مشغولاً بالنظر إلى وجهها الذي أخذ في التقلّص والانبساط. أسمع آهاتها القصيرة المتلاحقة، أشمّ رائحتها التي عبقت بهذا الكريم المشهور الذي كانت تستخدمه السيّدات عندما كنت صبيّاً. كنت أعيش في حلم بعيد لم أظنّه سيتجسّد بين يديّ كتجسّد نهدها في قبضة يدي. كانت تنتفض منذ البداية بدلال محنّك، أطلقت آهتها الأولى وأنا على أعتابها حتّى. لم يكن من الصعب أن أفرغ بعد قليل. لم أستطع أن أسحب نفسي منها، أجيد هذا لكنّ انديا‌ح رغبتي كان أسرع، أو أنّني استسلمت لرغبة قديمة كانت دوماً تثيرني أيّام صباي؛ أن أفرغ فيها. لم يبدُ أنّها انزعجت، كالنسوة الشابات في حياتي اللواتي عبرن بذات التجربة. لم أستطع التأكد إن كانت بلغت الذروة مثلي أم لا، فقط عندما همست أنّني سأفعلها، انتاب جسدها ما يشبه الحمّى، وهدأت بهدوئي.

أعلم أنّ المرأة تُستثار في هذه اللحظة، عندما تعلن لها أنّ جسدها قد نجح في حلب جسدك.

تأمّلت فخذيها البيضاوين وهي تمدّ جسدها لتلتقط المناديل الورقية بجوار الفراش. هذه الوهاد الدقيقة كنخزات إبر، هذه الخيوط البيضاء الرقيقة التي كست ردفيها اللدنين. نظرت لي مبتسمة. انبسطت؟! سألتني.

نظرت إلى شفتيها، لا يمكنني تصديق أنّهما قد طوّقتا ذكري منذ دقائق قليلة. أومأت برأسي أن نعم. ضحكت. قالت إنّ أمّي لن تسامحها أبداً بعد الآن. لم أفهم، ولكنّها ناولتني سيجارة ووضعت المنفضة على

الشرشف الناعم. لا أتخيّل أن تفعلها هي، شاب في نصف عمري. لا، ليست هي. قالت.

شعرت بغرابة ما، لم أدرِ ما الذي يمكنني قوله. لذت بالصمت، الصمت الذي كنت ألوذ به دوماً في حضورها. عدت صبيّاً فجأة، للحظة خاطفة، بعدما فكّ الكحول عقدة لساني معها في البار. عندها سألتني عن حياتي وما الذي أفعل، لِمَ طلّقت، فوجدت نفسي أتكلّم وأتكلّم، كأنّني سأصير أخرس بعد قليل. تظاهرَت بالاهتمام حتّى ثملت.

عند الباب خطفت منها قبلة. دسست يدي تحت ردائها المنزلي. شعرَت بتجدّد رغبتي.

قريباً سأهاتفك. الآن هيّا. همست.

خرجت بخفّة.

تصبح على خير يا عفريت. أكملت بنفس النبرة الهامسة.

عفريت أم لا، هي تضمن دوام ذكر النحل. هكذا قلت لنفسي وأنا أمضي في الشارع النائم. بدا الأمر سريعاً وخاطفاً، حتّى شككت للحظة في حدوثه. عبرت بمقهى ساهر فوجدت نفسي أحيّي الجالسين القليلين بنبرة عالية. بعضهم ردّ السلام وبعضهم نظر إليّ بصمت. ظللت أدير المشاهد التي التقطتها عيناي لما حدث في غرفة نومها الوثيرة، بمتعة ارتشاف العسل على مهل. استوقفت تاكسي، ركبته وأنا أقول وجهتي بذات الثقة. كنت منشرحاً، مليئاً بالعنفوان، بلا الكسل الذي يعتريني غالباً بعد جنس مشبع. داخلتني فكرة ما؛ ستكون تجربتي مع ليلى، نعم ليلى فحسب، هي الفيصل بين حياة قديمة وحياة جديدة. بلى، أن تحوز ما تُقت إليه بعد سنين طوال هو علامة على طريق جديد تحت شمس دافئة مشرقة.

منحت السائق بقشيشاً سخيّاً. شكرني بحرارة وربّما شكر في ذات نفسه الكحول الذي ينشع من أنفاسي.

أدرت المفتاح في الباب. دخلت. كدت أنتفض عندما رأيت خيال جسد أمّي الجالس في منتصف الردهة. نور القمر يجعل شعرها الرمادي

الأشعث حول وجهها المظلم هالة مخيفة. ذهبت كلّ نشوتي وهي تصرخ بي، تصرخ في همس حانق:

أيّها الأحمق، ما الذي فعلت؟!

كنت أضع بعضاً من ملابسها وبعضاً من ملابسي بدون أن أفهم. ظلّت تقول لا بدّ لنا من الهرب.

سنلفّ قليلاً في الشوارع، ثمّ نرجع، سنرجع، قلت لنفسي.

قبل قليل، ظننت أنّها عرفت بموضوع ليلى. ظلّت تصيح في وجهي ما الذي فعلت وأنا أحاول تهدئتها واحتضانها. تملّكتها قوّة لم أعهدها، حتّى في سني طفولتي البعيدة، حاولت إشعال النور لكنّها زجرتني.

لا تضئ النور. إيّاك!

بالكاد أضأت أباجورة على منضدة صغيرة بجوار أريكة كانت تحبّها. لم أنبس بكلمة، وكنت على حقّ؛ فعندما فرغت من تكرار ما الذي فعلت، فاجأتني: ما الذي قلت؟ ما الذي قلت! قلت ماذا؟! لقد أفشيت السرّ، يا أيّها الملعون، لقد أفشيت السرّ. أيّ سرّ؟! ما قلته في البار، أيّها الأحمق. وما الذي قلته في البار؟! قلت كلّ شيء. هم يعرفون الآن، يعرفون أنّ أحدهم قد بدأ بالتكلم، لا بدّ لنا من الهرب. هيّا. جهّز لنا حقيبة. لم أقل شيئاً. هتفتُ. لا تكن أحمق، لا تكن أحمق مجدّداً. ولكن. إن لم تكن قلت فكيف عرفت أنا؟! قاطعتني.

كنت متجمّداً في مكاني ومدهوشاً. هيّا! صرخت فيّ.

صرت أجري في الغرفة أضع شيئاً من هنا وشيئاً من هناك. فجأة توقّفت. ما الذي أفعله؟! ما هذا الجنون؟! نظرت في ساعتي، هي الثالثة صباحاً، لم يكن أبي في البيت، وإلّا لظهر في غمرة هذا المهرجان. فكّرت في حيلة بعينها، خرجت لها، وهي تدور في صالة البيت بعصبيّة، وكأنّها قطّة مبتلّة. وماذا عن أبي؟! قلت.

ماذا عنه؟! إن كنّا في خطر، أليس هو في خطر أيضاً؟ أين هو؟! هو يعرف كيف يحمي نفسه، وأنا أيضاً، أنت المشكلة. أنا؟! نعم، إنسيّ ولست بالإنسيّ، قطّ ولست بالقطّ، سيدمّرونك أكثر من بدر. أنت لا تعرف الجداء، أنت لا تعرفهم. أمّي، علينا أن ننتظر رجوع أبي. لا بدّ من أن نرى رأيه في هذا.

نظرت إليّ بغضب ونفاد صبر. ساد صمت بيننا. تعالت فجأة أصوات الخارج، نباح كلاب، صوت عربات تمضي لما تمضي إليه، أحدهم ينادي على رفيقه، رأيتها تهتزّ قليلاً، البرد والغضب، وكما بدت قويّة شابّة عادت، فجأة، عجوزاً كمومياء. بدا كأنّ التجاعيد نبتت أكثر وأكثر من سطح وجهها. ضربني شعور ما بأنّني سأتذكّر وجهها هكذا، هكذا في مواجهة النور المنسكب من النافذة الكبيرة بجوارها، غاضبةً وبردانةً وضائعةً وحزينة. عيناها، عيناها فحسب، كانتا تتألّقان. للحظة ظننت أنّني كسبت هذه الجولة في حرب ولجت فيها فجأة، كدت أخطو إليها قائلاً استريحي الآن، استريحي. اعتنيتِ بي قبلاً وسأعتني بك، أيّ جداء وأيّ سر وأيّ بدر. سيعود أبي وسنقنعها بالانتظار إلى أن يأتي الطبيب ويخلّصها من هذا الهذيان. سيكون كلّ شيء على ما يرام.

لكنّني كنت مخطئاً.

جذبت يدي ومشت بي نحو غرفة مكتبه، تلك الغرفة التي لم أدخلها سوى مرّتين في سنوات عمري كلّه، دفعت الباب وكأنّه غير موصد، فانفتح.

وقفتُ أمام الظلمة في الداخل حائراً، سبقتني وولجت إليها بخفّة، ثانية واحدة وكان النور الكهربائي الأصفر يتألّق في المكان. رأيت جلود الخراف في كل مكان. معلّقة على الحوائط، مفرودة على الأرض بعضها فوق بعض، مهملة في الأركان. في الوسط منضدة وأدوات لم أتعرّف إليها جيّداً، سكاكين، مطارق صغيرة، تكوينات حديديّة ما.

كنت أرمق ما يقبع أمامي بصمت. توقّفت عيناي عند وجهها الصارم.

قلت لك سيعتني بنفسه، الآن هيّا. قالت.

ثمّ ساد الظلام من جديد.

خرجنا من باب العمارة، كنت أحمل الحقيبة الخفيفة وأجيل نظري في الشارع شبه الميت. فكّرت في أن أستوقف تاكسي، وأخبره بعنوان أخي، لا أعلم لمَ لم يظهر أبي حتّى هذه الساعة، ولا أعلم لمَ كان يضع كلّ هذه الجلود في غرفته. سنذهب إلى أخي. نعم. خطوت في اتجاه الشارع الرئيس، خطوة واحدة وتوقّفت. جذبتني أمّي من مرفقي. انتظر. ماذا الآن؟ انتظر فحسب.

فجأة كان هناك تاكسي يدخل الشارع، قلت لنفسي هو حظّ حسن. مددت يدي لأستوقفه، لكنّه كان بالفعل وكأنّه يسعى إلينا. توقّف أمامنا بالضبط. تجاوزنا العربات المتراصّة بطول الرصيف، فوق كيسي قمامة، كنت أنوي مساعدتها في المشي لكنّني وجدتها تخطو وكأنّها تقفز. سبقتني إلى باب التاكسي وفتحته دون كلمة، كنت أريد أن أخبر السائق عن وجهتنا عبر النافذة لكنّه لم يفتحها. بقيت مغلقة، ملت أمامها ونظرت إليه ونظر إليّ. كان وجهه غريباً، لم أعرف لمَ، ولكن كان وجهه غريباً والنافذة بقيت مغلقة.

كانت أمّي قد استقلّت العربة بالفعل، فرجعت إلى الباب الخلفي وأولجت رأسي لفضاء العربة. المعادي؟ قلت.

التفت نحوي بخفّة ثم أعاد وجهه إلى حيث كان. لم أفهم.

ضع الحقيبة في السيّارة وهيّا. قالت أمي.

فعلت ذلك وعدت لأجلس بجوارها. انطلقت العربة في الشوارع. ما تزال أنوار المصابيح المدسوسة في الأعمدة الطويلة مضاءة، والنور يكسو الأشياء برقّة البدايات، تستبين المدينة جميلة على رماديّتها، صافية على تلوّثها، هادئة على ما سيعتورها من سباق مجنون في سويعات قليلة. تظهر مدينتي الأليفة في زقزقة الطيور وتحالق الخفافيش حول شجيراتها القليلة، بألف وجه لألف مبنى، في مدينة أشباح مفترضة قبل

أن يبدأ سعي الأشباح الحقيقيين. مدينتي التي ينشغل العقلاء فيها بكسر المرور وينشغل مجانينها أول ما ينشغلون بتنظيمه، مدينتي التي تغادر ليلها الذي تحكمه الكلاب الآبقة والسكارى والحشّاشون والمستغنون إلى نهار يحكمه ذوو النظارات السوداء بلا كلل ولا تعب. هكذا تستوي في طفولة الصبح منزلة بين المنزلتين ودرجة بين الدرجتين، عند عتبات اكتشاف العذاب ومغادرة اللهو، حين يصير العبث جاداً بعدما كانت الجِدّة لعباً. كنت أحبّ هذه الساعة مثلما أحبّ ساعة المغرب، فكما يبدأ النور بلطف تبدأ الظلمة بلطف، وكما يكلّل الصبح الفتيّ التفاصيل الصغيرة بهمس، يغطّي المغرب الخجول التفاصيل القاسية بتكتّم، العود الأبديّ اليوميّ إلى حين، حين لا يعود هناك ليل ولا نهار.

ذهلت عن الدنيا بدنيا، إلى أن انتبهت أنّ المدينة تبدأ بالمغادرة، استمرّ السائق بالإبحار في نهر إسفلتيّ منصوب في أرجاء المدينة حتّى كاد يغادرها. في البداية ظننت أنّه سيسلك مفترقاً ما هنا أو هناك ليوصلنا إلى حيث قلت، لكنّ القارب استمرّ منطلقاً في طريقه وكأنّ لعنةً ما تطارده. التفتّ إلى أمّي التي بدت هادئة. إلى أين نمضي؟! قلت بصوت استغربتُ نبرته. ستعرف. ردّت باقتضاب.

نظرت مرّة أخرى عبر نافذتها الموصدة. كدت أتكلّم لكنّني صمتّ. أخذت أنظر إلى الصحراء الشرهة التي أخذت في التمدّد أمام عينيّ، عبرنا بهذه التجمّعات الجديدة التي يبشّرون بها الناس، انتقام الإسمنت من الرمال، تخيّلت أنّنا سنتوقّف عندها، ولكنّنا مضينا، مضينا كما تمضي الشمس في الأفق، كمصير محتوم أو كآلة لا تتوقّف. كدت أتخيّل أنّنا سنضرب فعلاً في الصحراء وكفى، لكنّ العربة بدأت بالسكينة، ولاح لي بيتٌ عجيب، يقف في أفق هذه الغابات الإسمنتيّة الجديدة، يطلّ عليها وتطلّ عليه، كحبّ من بعيد أو كشوق مهزوم، وبينهما حبّات من رمال وقار. بدا لي عجيباً جدّاً جدّاً. ملوّناً بلون أخضر زاهٍ، وذو باب كبير جدّاً، عالٍ جدّاً، وكأنّه بوّابة من بوّابات مدينتي العتيقة. مبنى منتصب، هكذا، في منزلة بين المنزلتين.

توقّفت العربة أخيراً، نزلت أمّي وكأنّها ذاهبة إلى مهد طفولتها، بينما كنت أنا أتحسّس خطواتي، مشتّتاً ما بين حذر المدينيّ في مواجهة الطوب الرمليّ، وبين تأمّل ما يقبع أمامي. لاحظت وجهاً منحوتاً متكرّراً في إطار ارتمى بطول واجهة المبنى. وجه غريب بورقة شجر تتدلّى بين شفتيه. فتح لي السائق حقيبة عربته بضغطة زرّ، فانتزعني الصوت المكتوم المفاجئ من تأمّلي. التقطت أشياءنا وأغلقت حقيبته. انطلق بسرعة تاركاً إيّانا خلفه. كانت أمّي واقفة مبتسمة. نظرت حولي وندمت للحظة على كوني منصاعاً خائباً بهذا الشكل، أخي لم يكن ليتحرّك قيد أنملة من مكانه قبل أن يعرف وجهته. كان سيملأ الدنيا صراخاً لزجاً ومصرّاً ونزقاً إلى أن يخبروه، ثمّ سيطلق مثيله حتّى ينصاعوا لرغبته إن رفض الذهاب في طريق رسمه أحدهم له. هذا هو الشعور الوحيد الذي أقنعني بأنّني في حياتي فعلاً، ولست في حلم بعيد، أو في غمار حكاية تحكيها لي أمّي في طفولتي قبل أن أنام.

أين نحن؟؟!

على الأقلّ تمكّنت من قول ذلك أخيراً، وكنت أهيّئ نفسي للقفز في نوبة من الغضب على كلّ شيء وعلى أيّ شيء، عندها برزا. فُتح الباب الأخضر العملاق وخرج منه عملاق بطوله، أو أقصر قليلاً، وبجواره فاتنة شقراء زرقاء العينين، هو يرتدي ملابس سيّئة الحياكة وهي ترتدي فستاناً قديماً. نظرت إليهما، وإلى ابتسامتهما، ثمّ إلى أمّي وابتسامتها.

أقدّم لك الشاطر حسن وستّ الحسن. كنت تريد معرفة حكايتهما، أليس كذلك؟! قالت.

2

البيت كالمسجد، عالي السقف جدّاً، والأرض فُرشت بالبساط. لا ينقصه غير بعض المراوح. كرسيّ كبير في المواجهة، لم يكن صعباً أن أستنتج أنّه كرسيّ حسن. حسن ذو الصوت العجيب. مجرّد كون صوته عاديّاً، مع هذا الجسد الضخم، جعله عجيباً.

كنّا نجلس على الأرض، بأيدينا أكواب شاي، ياسمين تجلس أمامي، وخصلة من شعرها الأشقر تسقط على عينيها ذواتَي لون البحر. نظرتْ إليّ ونظرتُ إليها. كانا في غمرة الترحيب بأمّي. قالوا لنا إنّك ستأتين. كنت أفكّر: من الذين قالوا؟ سمعنا الكثير عنك. هي تجاملهم وتبتسم، تنظر إليّ وتعتذر منهم، ابني لم يعتد كلّ هذا بعد. تقول لي ياسمين قم. قمت. تتقدّمني شارحة أرجاء البيت، أشعر بعينيْ حسن في أعقابي. هذا حمّام حسن، وهذا حمّامنا. هذه خزانة حسن، وهذه خزانتنا، هذا سرير حسن. تتوقّف للحظة ثمّ تكمل: ستضطرّون، آسفين، للرقاد على البساط والآرائك حتّى نجهّز لكما سريرين. أهذا مناسب؟ قلت مناسب.

رجعنا وجلسنا. كان حسن يشرح لأمّي كيف أنّهم يتمترسون في الليل. أضع هذا اللوح مزلاجاً، أترينه؟ بلى. تأتي المفترسات في الليل أحياناً، من حيث الخلاء. لا نستطيع الاحتماء بالزحام، أنا غريب جدّاً وياسمين غريبة أيضاً، علينا أن نبتعد عن الناس، ولكن ليس كثيراً. لم يحمنا الزحام. اضطررنا للمجيء إليكما، تقول أمّي. وهذا منزلكما، تردّ ياسمين. كان ابني يودّ أن يسمع حكايتكما، تقول أمّي مشيرةً إليّ. كنت

قد حكيت عنكما في المشفى وفي المنزل، لكن لم يسعني الوقت لأكمل الحكاية.

نظرت إليها، قلت لنفسي هي من رفضت إكمال الحكاية. هل كانت تعلم أنّهما سيحكيانها بنفسيهما؟

حسن سيخبرنا أوّلاً، قالت ياسمين.

نظرنا إليه. تردّد قليلاً، ثم انطلق:

كنت أنمو، وأنمو. يستطيل جسدي في كلّ يوم جديد. بدأت أمّي بالنظر إليّ باستغراب. سألتني، أو بالأحرى تساءلت باستغراب، إن كنت ازددت طولاً. توقّفت عن سؤالي بعدها، ولكنّها ظلّت تنظر إليّ باستغراب. السراويل تزداد قصراً. الملابس تزداد ضيقاً. الحذاء يؤلمني. ارتديت أوسع ملابسي، تلك التي أهداها لي ابن عمّ غنيّ بعدما استهلكها، ابتعت حذاءً جديداً بعد شهر، بمقاس أوسع. خطر في ذهني شيء، أحضرت مقياساً؛ فاكتشفت أنّني أزداد نصف سنتيمتر كلّ يوم. ذهبت إلى طبيب لم يتمكّن من تفسير ما يحدث. طلب مني تحاليل وأشعّة، لم يكن معي نقود. وجهي كان يكبر أيضاً، بدت ملامحي مختلفة في كلّ يوم، هي هي نعم، لكنّها أكبر، خصوصاً ذقني. توقفت عن الذهاب إلى المقهى، كنت أعرف أن أصدقائي ينظرون إليّ بتعجّب، ولكن حينها كان المارّة يتأمّلون طولي الغريب أيضاً. في يوم، وجدت نفسي أكاد أنحني للدخول من باب المنزل، فعرفت أنّني يجب أن أختفي.

حزمت الملابس القليلة التي ما تزال تلائمني قليلاً، السراويل التي وصلت الآن إلى ربلتي، أخذت بعض النقود من حقيبة أمي، ومضيت. لم أكن أعلم إلى أين أمضي. مشيت ومشيت، أرسلت رسالة هاتفيّة إلى أمّي بأنّني مسافر، وأنّني اضطررت لاستعارة نقودها. أتتني مكالمتها في الصباح، بينما أمشي في الميدان الواسع، لكنّني لم أردّ. أعلم أنّها غاضبة لأنّني أخذت كلّ نقود الحقيبة، ولكن ماذا سأفعل؟ هي لديها بعض النقود في حساب بنك ما، أعلم ذلك، لذا لم يؤنّبني ضميري كثيراً.

مشيت ومشيت، حتّى وصلت إلى منطقة ما. جلست في المقهى، لم أبالِ بنظرات من حولي. طلبت شاياً، وعندها رأيتها. كانت شابّة أجنبيّة جميلة، أو هذا ما حسبت. أجنبيّة لكنّها ترتدي الحجاب وملابس الفتيات المصريّات. ظننتها من هذه البلاد، لكنّ ملامحها لم تشبه أيّاً من السيّدات اللاتي عهدت في بلادي. كانت لها خطوات متردّدة ونظرات تائهة، كان هذا مع غرابة ملابسها إلى ملامحها لافتاً. لعلّها من البوسنة، من تلك البلاد، أنتم تعرفون. عبرت بي مرّة واثنتين وثلاثاً، ترمقني في كلّ مرّة، وأنا لا أدري ما الذي يمكنني أن أفعله. كنت أطلب الشاي وأفكّر في ما يمكنني فعله، يجب عليّ استئجار مكان. سألت النادل فأخبرني أنّ سمسار المنطقة سيأتي بعد قليل. رمق ملامحي الضخمة وطولي الفارع ولم يزد. هززت رأسي وقلت حسناً. عبرت الأجنبيّة ثانية، تنظر إليّ، ضايقها شابّ لزج من الناحية الأخرى، فوجدت نفسي، بكلّ ضيقي وحيرتي، أقوم من مقعدي وأطبق على عنقه بكاملها بيد واحدة. تجمّع الناس وطيّبوا الخواطر، فصلوا بيننا عندما أرخيت يدي. وجدتها واقفة في مكانها حائرة، وبعضهم ما يزال يحدّق بها ويلقي لها بعض الكلمات بإنجليزيّة مكسّرة. لاحظت للمرّة الاولى أن بيدها حقيبة هي الأخرى. مضيت إليها وسألتها إن كانت تودّ أن تجلس لترتاح قليلاً. إنجليزيّتي لا بأس بها، ردّت عليّ بلسان عربيّ، وبلكنة شعبيّة أنّها موافقة. تعجّبت، لكنّني أدركت ما أدركته هي قبلي؛ كنّا مختلفين، ومتشابهين في اختلافنا. جلست وطلبت لها شاياً. أحاطت بنا نظرات الناس، عملاق وحسناء أجنبية. سألتها عن حكايتها.

كانت ملامحي تتغيّر، أنفي يضيق، رويداً رويداً، شعري يبدأ بالاصفرار يوماً بعد يوم، جلدي يبدأ بالابيضاض كذلك، زغب خفيف جدّاً يبدأ بالانتشار على جلدي، أكثر ما أفزعني هو ما بين ساقيّ، بدأ بالتمدّد لما كان قبل أن يختنوني. كنت مذعورة ومبتهجة في آن واحد، أحدّق في المرآة بلا تصديق، لا يمكنني تفسير ما حدث، هل استجابت السماء لدعائي؟

لكنّني لم أدعُ السماء بما لم يخطر في بالي، لقد كنت فقط أستخدم العدسات ومساحيق التفتيح. لم أدعُ السماء بما يعني المستحيل فعلاً. هل هي عطيّة سماويّة إذن؟! لم أعرف. كنت أقف أمام المرآة في كلّ ليلة لأحدّق بهذه الملامح. نهرتني أمّي في ليلة وقالت سيصيبني مسّ الشياطين. المرآة والماء الساخن في الحمّام يحضرانهم. تخبرني أمّي عن سيقان الماعز التي كانت تدقّ أرض الحارة في الليل عندما كانت صغيرة. كانوا يتركون مصباح غاز موقداً أمام مدخل البيت حتّى يخيف الأبالسة التي تهيم على وجوهها في الظلام. قلت لنفسي، أهي تعويذة شيطانيّة ما أصابتني؟ أنظر إلى الوجه في المرآة وأكذّب عينيّ، لا يمكن لشيطان أن يهب هذا الجمال. تذكّرت الأعمال السحريّة عن المحبّة، مثل هذه الأعمال التي استخدمتها ساقطة لتنزع منّي حبيباً قديماً. تصلني رسالة من محمّد، يريد لقائي في الأزهر بارك. قلت لنفسي سأذهب بعد موعد العمل. في الصباح مضيت إلى الشركة. أوقفني موظّف الاستقبال سائلاً إيّاي إلى أين أنا ذاهبة؟! قلت له إنّني ياسمين. نظر إليّ كمن ينظر إلى مجنونة وقال إنّني لستُ هي. قلت إنّني هي، قال لي إنّه لم يُجنّ أو يفقد بصره بعد، تساءل عن كنه الجنون الذي دفعني إلى باب الشركة، طردني، وأنا أحاول أن أقول له إنّني هي فعلاً. في الشارع، سحبت مرآةً صغيرةً من حقيبتي، نظرت إلى الوجه الذي لا أعرفه. وجه جميل جدّاً، وجه الفاتنات في التلفزيون، لكنّني لا أعرفه. وجدت قدميّ تقودانني إلى المنزل. أمشي والناس يرمقونني ويرمونني بعبارات الغزل، حتّى عبد الله، أخي، وجدته على باب الحارة، جالساً مع أصحابه في صباحهم الذي هو ليلهم، يتأمّل جسدي ويلقي على مسامعي بأسوأ عبارات التحرّش التي سمعتها في هذا اليوم، مررت به مسرعة، صعدت إلى المنزل، كانت أمّي نائمة في غرفتها. تصاعد صوتها عندما أغلقت الباب سائلة مَن. رددت أنا. لاحظت أنّ صوتي ما يزال كما هو. سألتني ما الذي جعلني أعود مبكرة هكذا. قلت إنّني أحسست بتعب. جلست على الأريكة القديمة أمام الباب. لا أدري ما

الذي يمكنني أن أفعله. لا بدّ لي من الهرب حتّى تزول هذه الغمّة، قمت واستعنت بالضوء الخفيف في غرفة أمّي، منحتها ظهري وفتحت الخزانة، التقطت ما يمكنني التقاطه من ثياب في النور الشحيح الهارب بين خصاص النافذة، أضعها في حقيبة صغيرة، أتركها دائماً بجوار الخزانة. تسألني أمّي عمّا أفعل، أقول لها أحضر بعض الملابس للكوّاء. أيّ كوّاء؟ قلت تعبت من الكيّ. أخرج مسرعة بما استطعت حمله. تذكّرت معطفاً داخل الأريكة المجوّفة التي نستعملها كصندوق. أزحت الغطاء وبدأت أنقّب. صوت قدمي أمّي يتصاعد، ترغي وتزبد عن كسلي وقلّة اهتمامي، ثمّ رأتني. تجمّدت في مكانها وقالت من أنت؟ ماذا تفعلين في بيتي؟ قلت أنا ياسمين. صوتي لم يكن واضحاً لأنّها صرخت لصّة، لصّة، أغيثوني. تركت كلّ شيء وبدأت بالجري. كنت أعدو وأعدو، يتأمّلني الناس في صدمة، وأنا أعبر بهم متملّصة من رجل حاول الإمساك بي، عندما برزت أمّي في الشرفة الضيّقة لمنزلنا صارخة بكوني لصّة، وبأنّ على الناس أن يمسكوا بي. لم أدرِ ما الذي يمكنني فعله. مشيت في الشوارع كالممسوسة. تركت حقيبة يدي في البيت أيضاً. تذكرت موعد حمادة في الحديقة. سأذهب إلى هناك وسنجد حلّاً، نعم. وجدت في جيبي بعض النقود، علّمتني أمّي ألّا أحتفظ بكلّ نقودي في حقيبتي أو في جيبي. جلست في انتظاره عند النوافير العديدة قرب المدخل. عبر بي وكأنّه لا يعرفني. ناديته، نظر إليّ، ثمّ حولي. التقطتُ عينيه وناديته ثانيةً. لم أرَ إنساناً على هذا القدر من الدهشة قبلاً. ظلّ ينظر إلى ثمّ أشار إلى نفسه بتردّد وسألني إن كنت أناديه. قلت بلى. اقترب منّي ببطء مندهش. قلت له إنّني ياسمين. ياسمين من؟ قال باندهاش. ياسمين التي أرسلت لها للحضور إلى الأزهر بارك. هذا صوت ياسمين، لكنّك لا تشبهينها أبداً. هذا ما حدث، لا أدري ما الذي حدث لي. بدأ بالتوتّر وهو يتفحّصني. كنت أكرّر بصوت أقرب للبكاء أنّني لا أعرف ما الذي حدث لي. قال لي فجأة إنّني اللصّة التي حاولت سرقة بيت ياسمين، بدا له كأنّه فهم، لقد سرقتِ تليفونها أيضاً، ما الذي تريدينه أيّتها اللصّة؟ لمَ تسرق

فتاة مثلك أصلاً؟! مدّ يده ليقبض على ذراعي. صرخت. التفت الناس حولنا في اتهام مسبق لحمادة بالتحرّش. حاول أن يشرح لهم، ولكن لم يترك له أحدهم أيّ مجال، فقط قال إنّني لصّة، ودفع أحدهم في وجهه، فاستفزّ بعضهم كونه متحرّشاً وكاذباً، وانهالوا عليه بقبضاتهم. خرجت من كلّ هذا جاريةً إلى خارج الحديقة، وكأنّني أخرج من الجنّة. لم تعد لديّ نقود، اللهمّ إلّا وريقات قليلة. كنت سأقبض مرتّبي اليوم أو غداً. ماذا سأفعل؟! لمعت في رأسي فكرة. اتّصلت بصاحب العمل، تجاهلت توبيخه لي وقلت له إنّني أريده في موضوع مهمّ. قال لي أن أحضر فوراً للعمل، قلت له سآتي لكنّي سأنتظره في الشارع أمام الشركة. لم يفهم وأغلق الخطّ في وجهي. سأنتظره أمام باب الشركة على أيّ حال. لا بدّ لي من هذه النقود وإلّا فسأموت جوعاً، سأموت متشرّدة، لم يعد هناك في هذا العالم من يعرفني. انتظرته، وهرعت إليه عندما خرج من باب الشركة. تكرّر الأمر مرّة ثانية، ولكنّه كان واقفاً بلا صراخ، شرحت له مشكلتي، لا يمكنني الرجوع إلى المنزل أو البقاء في أيّ مكان. اقترب بوجهه منّي كأنّه يتشمّمني، ثمّ قال حسناً، سآخذك إلى بيتي، زوجتي يمكنها أن تعتني بك حتّى نجد حلّاً. لم أصدّقه لوهلة، ولكنّه قادني إلى عربته، قال لي إنّه يصدّقني، هي أنا، هي أنا. انطلق بي إلى منزله، كنت ألحّ عليه أن يصرف لي مرتّبي، وكان يطمئنني ويقول لي إنّه سيبعث للصرّاف حتّى يحضر لنا النقود وكشف الأسماء لأوقّع عليه، فقط علينا أن نحلّ مشكلتي هذه الآن. لم أجد زوجته هناك. انقضّ على مثل ذئب. كانت هنالك آنية زهور في الغرفة كسرتها على رأسه. جمعت بعضاً من ملابس زوجته، وأخذت كثيراً من النقود، وانطلقت في الشوارع. لا يمكنني البقاء في أيّ مكان، لا أوراق شخصيّة معي، وحتّى إن كانت، فصورة الفتاة فيها لا تمتّ إلى وجهي الجديد بأيّ صلة. طفقت أمشي في المدينة، النقود التي سرقتها تكفّلت بالطعام، وبدخول الحمّام في الأماكن التي آكل فيها، لكنّني نمت في الشوارع لأيّام ستة، حتّى عثرت على حسن.

حكيا لي أنّ السمسار قد وصل بعد وقت طويل من إتمام حكايتها لحسن، الذي حكى لها حكايته هو أيضاً. قال لها بحسم إنّهما سيبقيان معاً. سيأتي السمسار وسيستأجران شقة بأوراق حسن الشخصية، هي معها بعض النقود وهو معه بعض النقود، سأقول إنّك زوجتي وإنّك أجنبيّة. إن سألونا عن قسيمة الزواج فسأقول إنّها في سفارتك وسأحضرها بعد أسبوعين. فقط لا تفتحي فمك. أتى السمسار ودخلا إلى بناية جديدة في حارة قديمة. وافقا على الفور، سيوافقان على أيّ شقة سيحضرها، وبدا كأنّ السمسار يشعر بذلك. وقفا أمام صاحب المنزل، رجل يُدعى رشدي، له شعر ناعم فاحم وعينان لوزيّتان، وله ابن صغير جميل ذو عينين كأبيه، طفق يتفحّصهما بهما. لم يغب عنه وعن السمسار غرابة أطوار حسن الذي كاد رأسه يلمس السقف. كان حسن يتوقّع أن يسألهما كثيراً من الأسئلة، لكنّه هزّ رأسه، لم يسأل عن قسيمة الزواج. وقّع العقد معهما وأخذ بعض النقود التي سرقتها ياسمين ومنحهما مفتاحاً. سقاهما شاياً من يد زوجته ثمّ قادهما إلى الشقّة، ربّت ساعد حسن ورجع إلى شقّته في الطابق الأوّل.

مضت الأيّام ثقيلة وغريبة، كانت ياسمين تنزل لتحضر الطعام والشراب، يمضيان الوقت بصمت ما، بعد أن يفرغا من الكلام عمّا حدث، وما يحدث، وما يمكن أن يحدث. انشغلت ياسمين بمرآتها وانشغل هو بمقياسه. لم تعد تلحظ تغييراً عليها في المرآة التي صارت تتفحّصها كلّ نصف ساعة، بينما أكمل حسن في مسيرة نموّه. يحاول التشاغل عن هذا بمدح مهارتها في الطهو. كانت تطهو أربع مرّات في اليوم، ملء معدة كمعدة حسن مهمّة شاقّة وجسيمة. تبتسم هي وتحكي له حكايات عن كيفيّة تعلّمها الطهو، وهو يحكي لها كيف نزل مع رفاقه إلى الميدان الكبير. يضحك ويقول لها ربّما كان أكثر نفعاً حينها لو ذهب عملاقاً كما هو الآن. يتقدّمهم ليتلقّى الرصاص وقنابل الغاز عنهم بلا تأثّر كما في الأفلام الأميركيّة الخياليّة. ظلّ ينمو وظلّت نقودهما تتناقص، وظلّ أهلهما يهاتفونهما وظلّا يتجاهلان الرنين. يعبر بهما رشدي مرّة كلّ عدّة أسابيع،

حاملاً بيده طبقاً من الطعام أو بعضاً من الفاكهة. يرفض الدخول دوماً ويبقى بفرجة الباب. يبتسم لياسمين ويمضي. يتمدّد حسن نائماً بطول الغرفة وتبقى ياسمين في النافذة متأمّلة النجوم، داعية السماء أن ترفق بهما.

بدأ رأس حسن يحتك بالسقف، وأصبح مضطرّاً للانحناء قليلاً في حركته. جاءت لياسمين فكرة، ولكنها تحتاج إلى نقود، وهما على شفا الإفلاس. قلت لها وماذا فعلتما؟ فعلت ما يجب عليّ فعله. قالت لي بهدوء، ناظرةً إلى عينيّ.

لم أسأل ولم توضّح، المهم صار لديهما مبلغ لا بأس به، ومضت لتقابل رشدي في الأعلى. قالت له إنّها تودّ استئجار الشقّة التي تعلوهما، هي شاغرة، أليس كذلك؟! هو كذلك. لدينا أقارب قد يأتوننا قريباً ونحن نريدها لهم. لم يسألها عن منطقها الغريب، وأمضى معها العقد وأخذ النقود. وفي صخب النهار، ضرب حسن سقف الغرفة بمعول أحضرته ياسمين. أُزيل السقف في غضون دقائق، واستطاع حسن أن ينتصب براحة في هذه الغرفة من جديد، ثمّ انطلق ليهدم سقفين آخرين. ظلّت المشكلة في الحمّام الذي يدخله بظهره منحنياً، لكنّ الراحة في بقيّة الشقة كانت شيئاً لا يُقدّر بثمن. تحسّبت ياسمين أن يسألها رشدي عن صوت هذا الطرق، لكنّه لم يفعل، أبداً لم يفعل. لم يفعل أحد من السكّان. نقلت الأنقاض على دفعات صغيرة، في حقائب بلاستيكية ترميها تحت العربات وتمضي.

ظلّ حسن في نموّه، وظلّت ياسمين تحوك له ملابس أطول وأوسع تحسّباً لذلك، على ماكينة خياطة أحضرتها قبل وقت قليل، بنقود جار لهما. جار؟! سألت. نعم، أجابت. قابلني هذا الجار على بسطة السلّم، كنت أطعم قطّة مشمشيّة صغيرة تسكن السلم منذ أن جئنا. كان قصيراً ونحيفاً وذا رأس كبير بنحو ملحوظ، بدا كمسمار. نظر إليّ ثمّ إلى باب الشقّة، مدّ يده في جيبه وأخرج نقوداً. حاولت أن أرفض لكنّه أصرّ، لا أريد شيئاً، قال، فقط خذي هذا، الجيران لبعضهم. كان يمكنها تدبير أمر

الملابس، لكنّها لم تجد حذاءً مناسباً لحسن، فاضطرّ هذا الأخير للمشي حافياً. رأت حذاءً ضخماً في واجهة أحد المحالّ، حذاء من جلد قويّ ورقبة عالية، يشبه تماماً ذلك الحذاء الغالي الذي أصرّ عبد الله على شرائه قبل سنين، فاضطرّت أمّه لدفع مبلغ كبير من النقود، بالنسبة إلى ماليّتهم الفقيرة، من أجله. سألت البائع عنه، فنظر إليها كمن ينظر إلى مخبولة، قال لها إنّ هذا الحذاء للعرض فقط. ظلّ حسن يكبر وظلّ رأسه يقترب من السقف الجديد، رويداً رويداً.

وفي يوم وقع حادث غيّر كلّ شيء. لاحظت ياسمين، وهي واقفة في الشرفة في المساء بكوب شاي، نظرات جار مندهش في البناية المقابلة، وافتغار فمه. كانت قد تعوّدت على سيلان اللعاب المنتظم الذي يصيب الرجال في حضرة هيئتها الجديدة، ولكنّه لم يكن ينظر إليها، كان ينظر في اتّجاه النافذة، ويرفع عينيه في اتّجاه النافذة التي تعلوها، يرجع إلى النافذة الدنيا ليرتفع بصره إلى النافذة العليا في ما يشبه الهستيريا.

وعندما نظرت ياسمين داخلاً، فهمت.

كان حسن يمضى أمام النافذتين، فرأى الجار جسداً واحداً يعبر بطابقين.

دخلت وأغلقت النافذة، وقالت لحسن أن يغلق النافذة العليا. لا بدّ لهما من الذهاب، لا بدّ.

ولكن إلى أين؟! لا يمكنها أن تعرف، وكان حسن متوتّراً بما يكفي، أقلّ من شهر، على أيّ حال، وسيضيق عليه سقف الطابقين، وسيعجز عن دخول الحمّام. جلسا مطرقين إلى أن حلّ الصباح. تتسلّل أصوات المدينة التي بدأت بالاستيقاظ وهما مسهّدان بعيون حمراء. قامت وأعدّت لهما شاياً، جرعه حسن في شربة واحدة، سمعا صوت جرس الباب. نظر كلّ منهما إلى الآخر. تكرّر صوت الجرس. تملّكهما خوف وحذر، حتّى تناهى صوت: أنا رشدي..

فتحت الباب بلا تردّد. سألها إن كان بإمكانه الدخول. تردّدت. ابتسم وقال لها لا تخافي.

دخل، أجال عينيه اللوزيتين في المكان الغريب حوله دون دهشة. جلس على أريكة قديمة وقال لهما مباشرة، بلا مواربة، إنّ عليهما الرحيل. سيأتون في أعقابهما. يجب أن يرحلا قبل أن يتحوّل البدر إلى هلال، قبل أن يشرع القمر قرنيه. من؟ سأل حسن. لم يردّ رشدي، بادرته ياسمين بأن إلى أين سيذهبان؟ لا يمكنهما تأجير شقّة أخرى، لا يمكن أن يظهر حسن هكذا للعلن. قال إنّه يعرف، وقال إنّ لديه حلّاً. أخبرهما عن هذا البيت، وأخبرهما أنّهما يجب أن يرحلا في الليل، في قلب الليل، حتّى لا يلحظهما أحد. هي مسافة طويلة، طويلة جدّاً، لكن يمكن لحسن بطوله الفارع أن يقطعها قبل شروق الشمس. أرشدهما إلى شوارع جانبيّة كي يمرّا بها دون لفت الانتباه.

وقبل أن يمضي، منحها مظروفاً، فتحته فكان كلّ ما دفعاه له من نقود.

قُرب الليل، تردّد حسن. ما يدرينا أنّه صادق، ما يدرينا ما الذي يمكن أن ينتظرنا؟ هو يريد التخلّص منّا على أيّ حال. ردّت عليه بأنّ عليهما الذهاب، سيقول الجيران بعضهم لبعض، سيعلم الجميع بشأن هذا الغريب المقيم في شقّتين الواحدة فوق الأخرى، كيف عرف رشدي بحاله؟ برأيه، لم يكن مقتنعاً تماماً، ولكنّه صار مستعدّاً للمخاطرة. في الليل، في قلب الليل، نزلا معاً، نزل بمشقة كبيرة، اضطرّ لأن يلقي جسده العملاق لينزل فوق الدرج كحيّة. وصلا إلى مدخل البيت، خرج منه وانتصب قائماً، وفي قيامته أدركت ياسمين كم استطال. حجب جسده بعضاً من البدر الذي تعاظم في السماء، وكأنّه يقترب ليلقي بنفسه على الأرض. حملها فوق كتفه اليمنى، وبدأ بالعدو.

كانت تتعلّق برأسه، حريصة على ألّا تحجب ذراعاها مجال رؤيته. كان لقدميه دبيب، وكأنّ العالم يهتزّ إثر خطواته السريعة الثقيلة، عدوه إن أردت الدقّة.

أين رأيتِ الحذاء؟ سألها فجأة.

أخبرته، فشرع يعدو باتجاه المتجر، حاولت ثنيه، لكنّه رفض. خرج إلى شوارع رئيسة. بصق بعض السكارى خمرهم عند رؤية هذا المنظر العجيب أمامهم، جرى بعض رجال الأمن البائسين، صرخت بعض السيّدات في قلب ليل المدينة التي لا تكفّ أبداً عن إدهاشهنّ، سقطت سيجارة حشيش من فم شاب يمشي في الشوارع الخالية كتائه. عوت بعض الكلاب في وجهيهما قبل أن تدرك خسارتها المحتومة في أيّ صراع محتمل. وصل إلى المحلّ، أنزلها، وبقبضته انتزع حديد الباب، لم يكن الأمر سهلاً جدّاً، ولكنّه لم يكن صعباً، وبقبضته حطّم لوح الزجاج الذي يفصله عن الحذاء. انطلقت صافرات الإنذار التي لم يعبأ بها. جلس على الرصيف ودسّ قدميه الهائلتين في الحذاء. حملها وعدا، بينما يعدو من أمامه كلّ شرطي اقترب من حيث تتعالى صافرات الإنذار.

عدا وعدا، وأنفاسها تنسرق منها، تشعر بغثيان، تمسك نفسها قدر ما تستطيع لكنّ معدتها تفلت منها. تغرقه. تبكي وتعتذر، يربّت رأسها ويقول لها ألّا تحزن. اتّبعا وصفة رشدي ليصلا، مع الخطّ الأبيض في السماء، إلى هذا البيت.

وجدت نفسي أنظر إلى الحذاء الضخم في قدم حسن. يبدو بالياً ومتهالكاً. منذ متى حدث ذلك؟ أسأل. منذ وقت طويل. يجيب حسن.

حاولت أن أنام، لكنّ غطيط أمّي الطفيف يحوم حولي بهدوء.

كنّا مفترشَين الأرض بعد مناقشة طويلة وحامية؛ كنت أريد أن نعود إلى المنزل وأن نترك هذا الجنون وراءنا، ولكنّها كانت تقنعني بالعكس؛ الرجوع إلى المنزل ليس آمناً، وإن كان لديك شكّ في كلّ هذا، فكيف عرفت أنا بأنّك قد أفشيت السرّ للكلب؟ أنا في خطر محدق بسببك، أنا وحسن وياسمين، أنت أقلّنا تعرّضاً للمخاطر، سنموت نحن وسيصمونك بالجنون، هل تتذكّر مجنون القرية؟ إن كان لديك شك، فكيف يمكنك تفسير طول حسن الفارع، وجمال ياسمين القوقازي؟ ياسمين. يا لها من

جميلة، ستّ الحسن هي، قلت لنفسي، مارلين مونرو بلكنة قاهريّة. فكّرت في وجهها، ثدييها، مؤخّرتها، ربلتها التي تكوّرت وهي جالسة، قدميها الرقيقتين. تحفة من الجمال في بيت غريب على حدود غابات الإسمنت والخلاء، جمال شارد وحائر. تذكّرت ما قالته عن الزهرة التي نبتت ما بين ساقيها، لا بدّ من أنّها بلون الورد، رقيقة وناعمة.

كيف أمكنها أن تقضي كلّ هذا الوقت مع حسن؟ سألت نفسي. قالت إنّ بإمكانها تدبّر أمر النقود، فلمَ تبقى معه؟ يمكنها أن تذهب وتستأجر شقة وتعيش حياة جديدة بعيداً عن كلّ شيء. كيف يمكنها تحمّل الطبخ لعملاق مثل هذا، أو تحمّل رائحة خرائه وتجشّئه؟! أهو الحبّ؟! لا أظنّ، ربّما الشفقة، ربّما زمالة الغرابة. تذكّرت أن لا أوراق رسميّة لها، ولكن يمكن لأحد زبائنها أن يزوّر لها ذلك، ربّما حتّى يكون أحدهم من النافذين، فيستخرج لها بطاقة أصليّة ومزوّرة في آن واحد. شردت مع تذكّر حلمتيها اللتين برزتا من تحت قماش ثوبها قليلاً، ونمت.

في الصباح، أيقظتني يدها الرقيقة. في يد أمّي كوب فخّاري من الشاي، غسلت وجهي والتقطت كوبي. يجلس حسن في كرسيّه الكبير حاملاً قدراً من الشاي لنفسه. تتصاعد الأبخرة منه كفوّهة بركان. صوت شفطه الشاي وكأنّه لشفّاط عملاق. وضعت أمامي ياسمين فطوراً، نظرت إلى الطعام وسألتها كيف يحصلون عليه، تجيبني بأنّ وراء البيت عيناً صغيرة حفرها حسن، تروي عطشهما، ومزرعة صغيرة، كما أنّه يصطاد في البرية. الخلاء خطر لأنّه بيت الماعز، ولكنّه مصدر أطيب اللذّات. لا يستطيعان الرجوع إلى المدينة من أجل المؤن، وعلى كلّ حال هو يصطاد نهاراً، ولا يخرجان في الليل إن كان البدر هلالاً. تأمّلت أشعّة الشمس التي تعبر النوافذ الكبيرة لتسقط في دوائر متتابعة فوق الأرض. قروش ذهبيّة فوق البساط الممتدّ. لا يمكنني استيعاب كلّ هذا، فعلاً. توقّفت أفكاري وأنا آكل، بدا لي مذاق الطعام مختلفاً، بالذات الخضروات، شرائح

من الطماطم لم آكل مثلها في حياتي، كم تقتل المدينة طزاجة كلّ شيء، نعم، حتّى الماء كان صافياً ونقيّاً، أو هكذا أحسست. ضربتني سعادة غامرة فجأة، هذه السعادة النادرة الصافية التي كنت أحتاط منها دوماً؛ لقد بلغت هذه الدرجة من البؤس، حين اقتنعت، تماماً، بأنّ هذه الدرجة من البهجة ما هي إلّا مرض.

رنّ جرس هاتفي، كان أبي. حذّرتني أمّي من الردّ. كنت أريد أن أقول له إنّنا بخير، ولكنّني رضخت لإصرار أمّي. اسمعي، يمكنني تحمّل هذا لأسبوع أو اثنين، ولكن يجب أن نرجع. حتّى إن كنتِ محقّة،لا يمكننا البقاء هكذا. قلت هذا بلا تبصّر، لا بدّ من أنّني آذيت مشاعر حسن وياسمين. تنهّدت أمّي وقالت إنّها تتمنّى أن تُحلّ الأمور قبل مرور الأسبوع. وكيف ستُحلّ؟ ألم يتعقّبنا تحالف الجداء والذئاب والقرود؟ والدببة أيضاً. الدببة؟! نعم، ألم تلحظ أنّه محبوب الأطفال؟! الدمى الجميلة التي تقول كم هو جميل ووديع! آه، حسناً، نعم. تذكّرت الآن. وجماعات الدفاع عن حياة القروش، لا تنسَ ذلك أيضاً، أخطرهم من أتى من البحر، من الأعماق السحيقة والظلمات.

قالت فجأة لحسن إنّها تريد أن تأكل غزالاً، هل يمكنه ذلك؟! ابتسم بأدب وقال طبعاً يمكنه، سيفعل ذلك غداً، أهذا مناسب؟ قالت مناسب. هو غداً إذن.

في الليل، جلست وراء البيت في مواجهة عمق الصحراء والخلاء. استعنت بخشب كوّمه حسن في ركن ما وبقدّاحتي، لأشعل ناراً أجلس أمامها متأمّلاً كثباناً بعيدة تعكس نور القمر وتمزجه بالظلال. الدفء الذي تجلبه النار يمتزج بالبرودة التي تجلبها الصحراء. لم أشعر بذلك قبلاً قطّ. النجوم الطارقة التي هجرت المدينة، وانتشرت في عرض السماء الدكناء. الريح التي تعبر هنا وهناك، راميةً أصواتها على مسامعي. أشعلت سيجارة، لم يبق فيها سوى خمس سجائر من علبة ممتلئة أمس. كيف

سأدخّن بعد ذلك؟ أحسست بشعور معتاد، كنمل صغير يسعى ببطء في رأسي، لا بيرة هنا أيضاً. أخذت أتأمّل الحصى اللامعة تحت نور القمر، من أين أتت الحصى، من أين أتت أشكالها البديعة المختلفة؟!

تألّقت شاشة هاتفي للمرّة الألف، مكالمة جديدة من أخي أو أبي. كان أخي بالفعل. رمقت الشاشة حتّى انطفأ نورها، ثمّ أغلقت الهاتف، كيف سأشحنه بالكهرباء على أيّ حال؟ يُستحسن أن أحتفظ بطاقته القليلة إلى وقت آخر. قادني هذا لأن أطفئ السيجارة في منتصفها، سأحتفظ بها هي الأخرى لوقت آخر. أبي، أبي الذي يقتل القطط في الليل، وهو من كان قطّاً أيضاً، هذا عجيب. كلّ ما أنا فيه عجيب وغريب، ولكن، قلت لنفسي، أيّ حياة تركتها ورائي لأشعر بحنين لها؟ ثمّة أوقات تمنّيت فيها الموت، فقط لأنّني في هذه الحياة، ولكن هنا، مع الطعام والصحراء والماء والنجوم، وياسمين، لا أشعر بكآبة، ربّما انشغل عقلي بهذه الحكايات، فلم يعد لديه الوقت ليضطرب. ربّما أنا في حلم، لكن لا، مددت يدي قرب النار، هذا دفء، دفء حقيقيّ.

سمعت صوت قدميها الرقيقتين، التفتّ ورائي مبتسماً. تتقدّم نحوي وفي يدها إناء فخّاري تتصاعد منه الأبخرة. شاي أعشاب ينمو بعضها خلف المنزل. هذه ميرميّة، هي ما كنت أحتاج إليه. لقد سمعتَني وشممت الميرمية، يبدو أنّك تعلّمت من أمّك. هل أخبرتكِ بحكاياتها الغريبة؟! نعم، ما زالت تحكي في الداخل مع حسن، لو لم أكن مررت بما مرَّت به لحسبتها مجذوبة.

تجلس بجواري، يا لها من رشيقة.

ألم تعلمي هذه الحكايات قبلاً؟! أبداً، والأغرب أنّها قالت لنا إنّ أبوينا كانا حمار اً وخرتيتاً. لم أتمالك نفسي من الضحك، وضحكت هي أيضاً. تقول أمّك إنّ المستولدين مثلنا هم من يمكن أن يتحوّلوا ثانية.

أهزّ رأسي وأنا أبتسم. سألتني عن شعوري الآن؟ أنت الوحيد غير الغريب بيننا، نعم، وُلدت من أب وأمّ كانا من القطط، ولكنّك لم تكن قطّاً

ولم تتحوّل إلى عملاق أو قوقازي، ربّما أنت الطبيعيّ فينا. ضحكت. فكّرت في أنّها لو كانت تعرفني جيّداً، لما استخدمت لفظة طبيعيّ هذه معي.

قل لي، لقد علمت من أمّك أنّك مثقّف وقارئ للعديد من الكتب، هل قرأت أنّ أحداً حدث له ما حدث لنا؟! أبداً، ربّما في الأساطير فقط. مثل ألف ليلة وليلة؟ هذه التي كانت تأتي في التلفزيون في رمضان؟ نعم، مثل هذا. قلت وأنا أبتسم. ولكنّه خيال، كنت أقول لنفسي إنّ ما يحدث لي أنا وحسن هو بالضبط من طينة ما كنت أراه في التلفزيون، هذه الحلقات القديمة. ولكنّها الحياة الآن، قلت. نعم، قالت. لمست شيئاً في نبرتها. لا بدّ من أنّ حسن يشعر بالسعادة لأنّ وعد ذلك الرجل، رشدي، كان صحيحاً، لقد توقّف نموّه. قلت، في محاولة لإيجاد شيء مبهج. نعم، هو مسرور لذلك، ولكنّه حزين لأنّه ترك كلّ حياته وصار هنا. أنا أيضاً، أتعرف؟! أفتقد أمّي، وعبد الله.

وددت أن أخبرها أن لا حياة لي لأفتقدها.

هل لديك صورة لك قبل هذا التحوّل. أشرق وجهها. انتظر. بعد دقائق كانت تعود بمحفظة قديمة من جلد زائف، وتخرج لي صورة شخصيّة، قرّبتها من النار لأرى بوضوح، رأيت الفوتوشوب المفرط. بشرتها فاتحة بطريقة غير طبيعية، وعيناها جعلهما المصوّر بنّيتين فاتحتين، لم تكن قبيحة، لكنّها لم تكن جميلة، كانت طيّبة، أو هذا ما بدا من الصورة، لم تكن لها أيّ علاقة بالحسناء الجالسة بجواري.

كنت جميلة.

كذبتُ.

أفعلاً؟! سألت متشكِّكة.

ضحكتُ.

أنت الآن مختلفة.

تألّق جزء من فخذها عاكساً بهاء النار. يبدو ناعماً ومشدوداً. بدا كأنّها لاحظت نظرتي، فانتصبت برشاقة داخلها بعض من الارتباك، قالت لي إنّها يجب أن تعود إلى الداخل.

تصبحين على كلّ خير، قلت وأنا أبتسم. ردّت ابتسامتي وقالت وأنت كذلك.

بادرني حسن وأنا في ثمالة الصحو: هل تحبّ أن تذهب معي للصيد؟!

همهمت قليلاً بتردّد. اعتذر وقال لي أن أكمل نومي، لقد كان مخطئاً في اعتقاده أنّني أحبّ مغادرة البيت وكسر الملل. قلت له بالطبع أودّ ذلك، سأغسل وجهي وآتي معك.

بعد دقائق كنّا عند باب البيت، أقعى ودعاني لأن أركب فوق كتفه. تذكّرت كيف ركبت ياسمين بالمثل. وضعت قدمي فوق فخذه وصعدت. أحطت رأسه بذراعيّ. قال لي تمسّك جيّداً، وبدأ بالعدو. كان الأمر أشبه بركوب درّاجة بخاريّة، تنطوي الكثبان والوهاد تحتنا سريعاً، وسريعاً يختفي البيت. ظلّ يعدو إلى أن وصل إلى بقعة بعينها، قال لي إنّها معبر لكثير من الطرائد.

أنزلني، وكمن هو وراء كثيب رمليّ، قال لي إنّني سأساعده كما كانت ياسمين تساعده، سأهشّ الغزلان ناحيته، وهو سيتولّى الباقي. لا قوس أو نشاب لديك، قلت متعجّباً. قال لي ألّا أقلق، بابتسامة ما. انتظرنا قليلاً، وكأنّنا في إحدى ألعاب الطفولة التي عبرت العقود بنا دون أدنى ذكرى لها. أزجينا الوقت بحديث بدأ به هو عن ياسمين، أخذ يكلّمني عن طيبتها معه، وكيف بعثتها الأقدار له لتنقذه من ضياعه، هو يشعر بالسعادة لأنّها سعيدة وراضية معه. خطر لي أنّه يريد إيصال رسالة ما. قطع كلامه وهمس لي أن اصمت. هناك رهط من الغزلان يقترب. غزلان، من يتوقّع أن أرى غزالاً وأنا المحبوس دوماً بين الطوب والإسمنت. كنت أجلس دوماً مسحوراً أمام البرنامج القديم الذي ينقل لنا صوراً من الحياة البريّة، أولعت بالأسود، طبعاً، والنمور، والذئاب والفهود والثعالب، في مدينة لا تعرف سوى بنات عرس والقطط والكلاب وبعض الطيور. لم يقترب منّا رهط الغزلان. سألته هل رأى هذا البرنامج القديم، أجاب بلى، ثمّ

سألني هل شاهدت تلك القناة الأميركيّة المتخصّصة بكاملها لمراقبة الحيوان، قلت نعم. لا مقارنة ما بين هذا وبين هذه الموادّ القديمة التي كان يذيعها علينا التلفزيون. قلت له إنّهم يقولون إنّ مثل هذه الأفلام لا تعكس حقيقة الحيوان، كلّها في محميّات طبيعيّة أو ما شابه، لا يمكننا قياسها على سلوك الحيوانات الحقيقي في عمق الأحراج والأدغال أو الصحاري مثلاً. هزّ رأسه ولم يقل شيئاً. خُيّل لي فجأةً أنّنا في داخل أحد هذه الأفلام. نظرت إليه وسألته ثانيةً إن كان متأكّداً من قدرته على الصيد بيديه العاريتين، فكرّر ما قاله: لا تقلق.

بالطبع لم يكن عليّ القلق، فبعدها بدقائق كنت أشاهد تلك اليد وهي تقبض على عنق غزالة جميلة كانت تعدو من أمامي، حاولت المسكينة التملّص، ولكنّ اليد شدّدت ضغطها أكثر على رقبتها، كانت خفّة حركته عجيبة إلى حجمه، حجمه الذي لم يأبه برفسات الغزالة المستميتة التي أصابت صدره ومعدته. هزّها في يده حتّى تعبت.

لن أخنقها، سأحملها مثل كلّ مرّة لأذبحها عند البيت. سأربطها حول خصري وستركب أنت على كتفي، قال.

هززت رأسي، ركبت على كتفه وبدأ هو بالعدو راجعاً. كيف يعرف الطريق قافلاً للبيت؟! قلت هو يعرف وكفى، لا يمكنني أنا الحكم على هذه الأمور.

في الليل، أمام البيت، وبجوار النار الموقدة، خرجنا أنا وأمّي. حمّمتها وألبستها ملابس نظيفة، مشّطت شعرها وهي تدندن، لم تبدُ متألّمة أو متأفّفة من النوم على البساط، كانت في مزاج طيّب، يمكنني القول. خطونا للخارج، وكان حسن يذبح الغزال الذي أبقاه حيّاً لساعتها، وبجواره ياسمين. تنظر إليّ أمّي وتقول إنّ كل أضحية لا بدّ من أن تكون ذات قرنين. فكّرت وقلت لها إنّ بعضهم يضحّون بالحِمال. لوّحت بذراعها وقالت إنّ هذا لم يرد في الكتاب. ذو القرنين وناسه هم من يذبحون الحِمال. لم

أرد النظر مليّاً إلى مشهد الذبح، هكذا ركّزت جل انتباهي على عينيْ أمّي اللامعتين وهي ترمق ما يفعله حسن. تناهى لأسماعي صوت الغزال الذي يلفظ أنفاس حياته، لم آكل غزالاً في حياتي، ولكنّني أكلت بالطبع الضأن.

أتذكّر تلك الأيّام، حين كنّا نحضر خروفاً للعيد. يضعه أبي في المنور. كنت أتحايل على أمّي، أنا وأخي، ونطعمه بأيدينا. كنت لا تريدين لنا أن نجلس معه طويلاً. ستحبّانه وستحزنان حين يُذبح، كانت تقول، وكانت على حقّ. أتذكّر حينما التقطت مفتاح المنور من ورائها، وجلست أمام الخروف. كان مربوطاً إلى ماسورة مياه متهالكة، أمامه طبق فيه خضروات وإناء ماء. ماء، ماء، ماء. هكذا كان يتحدّث إليّ وأنا أضحك. ثغاء، هذا هو صوته. بحثت في القاموس عنها. أخذت أنظر إليه وهو ينظر إليّ. عيناه تبرزان من جانبي وجهه كالثآليل، بينهما مسطّح من الفرو البنّي اللامع. قرأت أنّ له وللطيور عينين على جانبي الوجه تلحظ بهما أيّ عدو يقترب من بعيد. مددت يدي بحزمة من البقدونس ابتعتها من السوق، تشمّمها قليلاً ثمّ التهمها على أيّ حال. سمّيته هاني. لا بدّ من أنّني كنت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، لأنّني أتذكّر شكواي له من تسلّط أمّي وإصرارها على رجوعي إلى البيت في تمام التاسعة مساءً لا أكثر، حتّى في أيّام الخميس. اعتبرت هاني صديقي الأقرب، كنت أحكي له كلّ شيء تقريباً، وأحياناً كنت أحضر معي كتبي المفضّلة لأقرأ له. واجهني أخي بسخريته أمام أمّي. يدعوه هاني، قال بضحكة ساخرة. كان قد وجد باب المنور مواربا في يوم وسمع صوتي، فوقف ليستمع. أخبر أمّي عن قصّة غرامي بفتاة زرقاء العينين في الشارع الموازي لشارعنا تُدعى رانيا. ضحكا واحمرّت أذنايّ. لم أذهب إلى هاني بعد ذلك أبداً، وسرعان ما وجدت قطعاً من لحم هاني موضوعة فوق أرزٍ وخبزٍ وصلصة حمراء.

مرّ الزمن ولم نعد نحضر خروفاً لنذبحه، ولكنّني كنت أرى الدماء تسيل في الشوارع حين يأتي هذا اليوم، عادة ما كنت أرجع بعد موعد الذبيح، لأخطو بحرص كبير متحاشياً الأنهار الحمراء اللزجة. لم أتذكّر أبداً مشهداً

كهذا في طفولتي، أو ربّما أنا مخطئ، ربّما تعاكسني ذاكرتي وتسرد لي مشهداً عن شارعي النظيف الأنيق في طفولتي، لا أعلم.

خطت أمّي خطوة وقالت لحسن أن يعطيها قطعة من اللحم. نظر إليها للحظة، سألها إن كانت تريد كبد الغزال، مثلما يفعل الناس بأكباد الكباش أو العجول، قالت امنحني أيّ قطعة من لحمه. قطعة جيّدة، قالت. قطع لها قطعة كبيرة بسكّين، وأعطاها لها. ودون تردّد، أمام ثلاثة أزواج من الأعين، أخذت أمّي تقضم اللحم النيء، بينما الدم يسيل من شفتيها متقاطراً على ثوبها الجديد النظيف، وعيناها تلمعان أكثر فأكثر.

عندما فرغنا من الأكل، وفرغت أمّي من لعق أصابعها، وبينما كان حسن يعدّ شاياً من الأعشاب البرّية في قدر ضخمة فوق النار العظمى التي أشعلها لشيّ الغزال قبلاً، قالت أمّي: أريد أن أقصّ عليكم حكاية، يا ياسمين، أنتِ تحبّين هذه الحكايات، ويا حسن، استمع جيّداً، أمّا أنت يا بنيّ، فبرغم إفشائك السرّ، لم يعد أيّ شيء مهمّاً الآن، اسمع.

انتبهنا لها، بينما بدأت بسرد الحكاية:

كان يوماً جديداً..

وقف عمّار فوق تبّة صغيرة متأمّلاً السماء التي أعدّت نفسها لسطوع الشمس. راقب خطوطاً من النور افترشتها هي والرمال الممتدّة أمامه بلا نهاية.

لعب بعصاه الصغيرة في رمال التبّة، وحكّ أنفه قليلاً. هو يحبّ دائماً أن يراقب الشروق والغروب. يراهما توأمين متعاكسين، الأوّل يقود إلى شمس حامية لا ترحم وصهد لا ينكسر، والثاني يقود إلى ظلام مقيم، وأصوات مخيفة من أماكن بعيدة.

الكبار يحبّون الليل، يلتفّون حول النار، ويشربون ما طاب لهم ويثرثرون. هو أيضاً يحبّ الليل، لكنّه يجلس فوق تبّة مفضّلة، يستمع لأصوات

الصحراء البعيدة التي لا تشبه صخب الواحة في أيّ حال.

زمان، كان يجلس مع والده حول النار، يستمع إلى كلّ الحكايات التي تروي أصل الواحة، من أهلها، أو إلى حكايات أخرى يرويها ضيوف يُصادف وجودهم، إلى أن جاء يوم ودخل الواحة رجل عجوز، طويل الشعر واللحية ناعمهما، عيناه رماديّتان عميقتان. أحسّ عمّار بالخوف عندما حملق فيهما.

بقي الغريب في واحتهم ثلاثة أيّام. جلس يتسامر في الأوّل، ثمّ انقطع تماماً في اليومين الأخيرين.

وفي اليوم الثالث بالتحديد، رآه عمّار جالساً على تبّة ترقد على أطراف الواحة. انتبه العجوز إلى الصغير، فالتفت إليه مبتسماً وقال:

– تعال.

لم يدرِ الصغير كيف رآه هذا العجوز في ذلك الليل الحالك، وارتعش قليلاً عندما تذكّر حديث أمّه مع رفيقاتها عنه. كن يستعجبن لحيويّته الغريبة رغم سنّه، ويقلن إنّ في الأمر سرّاً.

فكّر عمّار أنّ العجوز شيطان أو وحش، فوقف في مكانه لا يدري ما سيفعل في مواجهة هذا الغريب الغامض.

– تعالَ ولا تخف. لستُ شيطاناً ولا وحشاً.

انتفض الصغير لدى سماعه الصوت الذي بانت نبراته العميقة وفكّر، كيف عرف العجوز ما يفكّر فيه؟!!

– تعالَ. تعالَ يا صغيري.

اقترب منه كقطعة معدن يشدّها مغناطيس. حدّث عمّار نفسه بالهرب. بالعدو بعيداً مثلما يفعل مع قاسم وزياد عندما يهدّدانه، ولكنّه وجد نفسه جالساً بجوار العجوز الذي أشار إلى القمر قائلاً:

– القمر جميل ومكتمل هذه الليلة.

– نعم.

ردّ عليه بوجل. لم يلتفت إليه العجوز، الذي شرع في تأمّل القمر. ثمّ أكمل:

– هل تريد أن تصبح القمر؟

نظر إليه عمّار ولم يرد. ماذا يقصد هذا العجوز بالضبط؟!

ضحك العجوز ضحكةً صغيرة ثم قال:

– لا تفهم. أليس كذلك؟! لا بأس..

ثمّ صمت تماماً. وتعالت أصوات الصحراء مرّة ثانية، لتأكل الفضاء. لبث عمّار برهةً متردّداً بعض الشيء ثمّ قال:

– وهل أصبحت أنت القمر؟!

– وأصبحت الرياح. والرمال. والنجوم. والسحاب.

قالها وابتسم. هنا لم يتمالك عمّار نفسه وسأل:

– كيف؟!!!!

ظلّ العجوز على ابتسامته وهو يردّ:

– بأن أجلس هكذا.

– وهل هذا يجعلك كلّ هذه الأشياء؟!!

– نعم. ويجب أن أصمت أيضاً..

هزّ عمّار كتفيه مندهشاً. وبدأ الخوف يعتريه ثانيةً. إنّ هذا الرجل لرهيب فعلاً. يقول أشياء لا يدري أحد ما معناها وما سرّها.

– يمكنك أن تمضي الآن.

فوجئ بعبارة العجوز، ولكنّه لم يلبث أن قام، نفض الرمال الواهنة عن ثيابه، وطفق يسرع الخطى مبتعداً، دون أن ينظر وراءه مرّة واحدة. إلّا أنّ صوت العجوز تعالى من ورائه هاتفاً:

– تذكّر ما قلته لك جيّداً.

وهنا، انطلق يجري مذعوراً إلى حيث سامر والده.

وبدأ عمّار بالجلوس مثلما كان يفعل العجوز. لا يدري لِمَ يفعل ذلك، ولكنّه كان ينظر إلى القمر بحنين، ويسأل نفسه:

– أيمكن أن أصبح القمر ذات يوم؟!

وبمرور الوقت، اختار عمّار أن يصمت في الغروب والشروق، فالنهار مرهق بالعمل في سوق الجِمال، والليل فراش التعب.

كان يصحو قبل الشروق وينام بعد الغروب، وهنا تذكّر أن العجوز كان يسهر الليل بطوله. ومتى ينام؟!!!

تذكّر ما كانوا يقولونه عن رحيل العجوز، وكيف أنه اختفى تماماً عن مرمى البصر بعد قليل من مغادرته، وكيف كان نشيطاً، قرير العين كمن نام دهراً بأكمله.

هل طول صمته هو ما جعله القمر والنجوم والرياح والرمال؟!

هو لا يدري.

ارتفعت الشمس قليلاً في الأفق. وارتفع معها صوت أبيه منادياً.

تأمّل وجه الجمل الذي انهمك في أكل العشب وأخذ يلوكه في فمه، وهو ينظر بدوره إلى عينيْ عمّار. كم يحبّ هذه الجمال.

كان يحسّ بتيّار غامض من العظمة يسري في عروقه، عندما يتأمّل هذا الحيوان الذي لطالما سرق نظراته، منذ أن وعى على الدنيا.

يخاف منه كثيراً عندما يغضب، فغضبته مدمّرة لا تبقي ولا تذر، تكون قدماه هائجتين وفمه – الذي يرقد هادئاً أغلب الوقت – يتوق إلى عضّ أيّ شيء يطوله عضّة مؤلمة.

وفي غير ذلك، هُيّئ لعمّار أنّ وجه الجمل إنّما هو وجه رجل عجوز هادئ، عكست عيناه كلّ الحكمة الموجودة في هذا العالم. عينان صامتتان صافيتان، تتحرّكان بهدوء سحب السماء.

جميل. أليس كذلك؟ قالها أبوه وهو ينظر بدوره إلى الجمل، واضعاً يديه على خاصرته، ثمّ أردف:

– وأجمل ما فيه كبرياؤه.

نظر عمّار إلى أبيه مبتسماً، لقد أدرك منذ زمن بعيد أنّ عشقه للجمال موروث، أباً عن جدّ، حتّى آخر جدود الصحراء القدامى.

تابع أبوه:

– هو لا ينسى إساءة. جرّب فقط أن تضربه بقسوة أكثر من اللازم.

اقترب بعد كلمته هذه، وربّت عنق الجمل في حنان، ونظر إلى ابنه مبادِلاً إيّاه الابتسام.

كم كبر هذا الصبيّ الصغير ! قالها لنفسه وهو يتأمّل عمّار الصغير الذي كان قبل أمس، قبل أمس فقط، محمولاً على ذراعيه.

الأولاد يكبرون ونحن نشيخ. يا تُرى، ماذا سيرثون بعدنا؟!

أطال في نظرته إلى وليده وابتسامته الصافية التي ورثها عن أمّه وعينيْ جدّه الذكيّتين. قال عمّار:

– وصبور جدّاً يا أبي.

– نعم. صبور جدّاً جدّاً. ولكنّه، وكن على حذر، لا ينسى إساءة.

يتذكّر عمّار جيّداً كيف هاجم الجمل شديد ابن صاحبه، وكيف خلّصه الناس قبل أن يتمكّن منه الجمل. دأب الشاب السمج على ضربه بشدّة وإهانته بشتّى الطرق، مرّة بعد أخرى.

قرأ أبوه في عينيه أطيافاً ممّا يمرّ في ذهنه، فضحك عالياً وقال:

– لا تخف منه. ما دمتَ تعامله بعدل وحبّ. إنّ الجمل يشعر بالحبّ يا عمّار، ويبادله بالحبّ أيضاً.

ثمّ أردف في أسىً:

– هو ليس كبني آدم يا بنيّ.

كان عمّار يدرك ما يقصده أبوه، فقد كان هذا الوقت وقت كرب على الواحة وأهلها.

قافلتان يُقطع الطريق عليهما. وموسم من الجفاف العجيب الذي تحاكي به عجائز وحكماء الواحة، والأدهى من كلّ ذلك، تلك الغلظة العجيبة التي أضحت بين الناس. تلك القسوة التي برزت في أفعالهم، وأقوالهم، وجلساتهم، وآرائهم. تلك القسوة التي كانت ضدّ وحشيّة الطبيعة، أضحت ضدّ الأهل والأحباب والأصدقاء أنفسهم.

أصبحت العائلة الكبيرة الواحدة عائلات متناحرة، كلّ عُصبة تتربّص بأختها، ومن أجل بعض التمر، أو قربة من الماء، يمكن أن تنشب آلاف المعارك والمعارك التي لا تُحمد عقباها. بدا كأنّ عصارة الصحراء التي رضعها أهل الواحة جميعهم بدأت تنضح على جلودهم صبّاراً قاسياً موجعاً.

تنهّد أبوه بعمق، ثمّ سار بتؤدة ليأخذ مكانه بجوار حامله الصغير، الذي يحمل بيسر وسهولة بضاعة أشدّ صغراً وضآلة.

بقي عمّار واقفاً بجوار الجمل، وسرعان ما استقرّ على الأرض بجواره، مجيلاً عينيه في أرجاء السوق المتّسع التي ما لبثت ضوضاؤها وروائحها المتداخلة التي ألفها، أن اقتحمت حواسّه مرّة أخرى، بعد تأمّل الرفيق وحديث الأب.

أمسك بقشّة وأخذ يلهو بها في الأرض، راسماً منحنيات وخطوطاً لا يدري لها تفسيراً، يتناهى إليه صوت أبيه بين الفينة والأخرى، وهو يحمل اعتذاراً لزبون، أو مفاصلة حادّة على بضائع تافهة.

فجأة، بدا لعمّار أنّ جلبة السوق اختفت، وشعر بإحساس غريب بأنّه مُراقَب. رفع عينيه ففوجئ بالشيخ سليمان، سيّد حكماء الواحة وزعيم القبيلة العجوز، واقفاً أمامه وهو ينظر إليه بتركيز. التقت عيناه بعينيْ الشيخ السوداوين العميقتين، فزاد ترقّبه. تركيز العينين الذي انقلب بعد برهة إلى ابتسامة تحاول أن تكون مُطمْئنة جعل دقّات قلبه تتعالى.

التفت الشيخ إلى أبيه، وقال إنّه يريده في أمر ما.

ثمّ حدثت في الواحة أشياء لم يفهمها.

طفق رجال الشيخ يلفّون في أرجائها، يأخذون الفتيان من عمره إلى خيمة الشيخ الكبيرة التي يعلم أنّ مجلس حكماء الواحة ورجالاتها منعقد داخلها. يغيب الصبيّ دقائق معدودة، ثمّ يظهر متقافزاً كالحمامة، سعيداً بتخلّصه من موقف لا يدري كنهه.

لم يستطع عمّار أن يعرف سرّ ما يجري في الواحة، لأنّ أحداً من الفتية لم ينبس ببنت شفة. هم أو آباؤهم على حدّ سواء، وكأنّ هناك فرضاً من السريّة أُلقي في قلوبهم جميعاً.

أتاه أبوه وقال: هيّا.

دخل إلى الخيمة بخطىً مترددّة. حدوة الحصان الواسعة التي كوّنها مجلس الواحة، كشفت عن وجه الشيخ الجالس في منتصفها. نظر إليه

بحنان قائلاً:

– تقدّم يا بنيّ.

تقدّم عمّار وقد بدأ يرتعش قليلاً. تُرى ماذا سيفعلون به. هكذا فكّر. مرّت لحظات تقدّمه ثقيلة. تمنّى لو صحبه والده، ولكنّه انتظر في الخارج. عيون الحكماء حملت تعبيراً غريباً لم يفهمه، وزاده وجلاً.

عندما كشفوا عن كتفيه وبدت في عيونهم دلائل المفاجأة، أيقن أنّ هذا هو ما يفعلونه بكلّ الصبية في الواحة، وانتظر خبراً مزعجاً، لأنّ أمّه التي كشفت عن ذات المنطقة أمس فقط، بانت عليها دلائل الحزن، وأطلقته خارجاً وقد بدت على شفا البكاء.

تذكّر كلمات والده التي لطالما أخبرته أنّه الآن رجل كبير، يجب عليه تحمّل مسؤوليات الرجال وأخطار طريقهم، ولكنّ قلبه خانه مع كلّ هذا الصمت الرهيب الجاثم على مجلس الحكماء. إنّه فتى صغير. هو يعرف ذلك ويدركه. أمسك نفسه بصعوبة عن البكاء، وهو يذكّر نفسه بكلمات أبيه.

همس الشيخ بكلمات قليلة في أذن رجل مهيب يجلس على يمينه، فقام الرجل على الفور. ربّت الشيخ على الحاشية بجواره، ناظراً إلى عمّار أن اجلس.

جلس عمّار إلى جوار الشيخ. احمرّ وجهه عندما صار في مواجهة الرجال جميعهم، حتّى الذين تخطّاهم بتقدّمه. رفع الشيخ صوته قائلاً:

– يمكنكم الانصراف الآن.

بدت ومضة خفيفة من تردّد في الجوّ، لكنّ الجميع انصاع سريعاً، وقاموا مسوّين ثيابهم، ناظرين إلى الفتى الصغير نظرة أوحت إليه أنّهم يودّعونه. بدأت هزّة ركبتيه بالازدياد، كذلك احمرار وجهه وأذنيه. راقب خروجهم جميعاً من باب الخيمة باستغراق شديد، لأنه، ببساطة، ليس لديه شيء آخر يفعله سوى ذلك. ربّت الشيخ كتفه بحنوّ وقال له:

– أتحبّ بعضاً من حليب العنز؟!

نظر عمّار إليه فوجده مبتسماً. تابع الشيخ:

– أنا أعلم أنّك تحبّه.

قام الشيخ بنفسه إلى المنضدة الدائريّة الصغيرة وسط الخيمة التي وحده يمتاز بامتلاكها، وصبّ له قدحاً قبل أن يتمكّن الفتى من الاعتراض. فكّر عمّار في ما يمكن أن يقول له أبوه إن علم أنّه لم يعترض عندما ضيّفه الشيخ بنفسه.

مدّ إليه الشيخ بالقدح قائلاً:

– هيّا. اشرب.

التقط عمّار القدح بيد مرتعشة وجرع منه جرعة سرت لذّتها في جسده، وتمتم بكلمات مدغمة شاكراً الشيخ الذي قال وابتسامته ما تزال على شفتيه:

– والآن يا بنيّ. لقد اختارك القدر لتؤدّي مهمّة عظيمة.

نظر عمّار إلى الشيخ مندهشاً. بدت كلماته أكبر ممّا يمكن أن يفهمه. أكمل العجوز:

– أتذكر العجوز الذي وفد إلى واحتنا؟! ذلك الغريب الأطوار؟!

هزّ عمّار رأسه بأن نعم. هو يدرك أيّ عجوز يتحدّث عنه الشيخ. ذلك الغريب حقّاً. أكمل الشيخ:

– حسن جدّاً.

شرد ببصره صامتاً للحظات، قبل أن يقول:

– هنالك حكاية قديمة جدّاً يا بنيّ. نبوءة عن غريب يأتي إلى هذه الواحة، ويكون وصوله نذيراً بحدث غريب.

اتّسعت عينا عمّار، وأصاخ سمعه في انتباه، منتظراً ما سيقوله الشيخ. صمت الشيخ مرّة أخرى، وبدا كأنّه يبحث عن كلمات مناسبة لما ينوي قوله. أخيراً تنهّد، وأرخى يديه على حجره قائلاً:

– سيحدث شيء غريب جدّاً. ولن نجد الحلّ إلّا في شخص صبيّ صغير في مثل عمرك. صبيّ طيّب القلب نقيّ السريرة. صبيّ يثبت أنّه ما تزال في هذه الواحة طيبة ورهافة.

فكّر عمّار في ترقّب، وهذا الولد هو..

– أنت.

قالها الشيخ وهو يحدّق في عينيْ عمّار بتركيز. كرّر:

– أنت يا عمّار هذا الفتى. في كلٍّ من كتفيك شامة خضراء، وقد جلس الغريب إليك مرّة. ربّما نحن نستبق الأحداث الآن، لكنّ البغضاء انتشرت في بيوتنا. هذه هي الأجواء التي وعدت بها النبوءة، كما وعدتنا بعجوز لا ينام الليل ولا النهار، وصبيّ في مثل عمرك، يحمل شامتين خضراوين.

كاد عمّار يسأل ولكن ما هذا الشيء الغريب؟!!!، لكنّ الشيخ ربّت كتفه مرّة أخرى، قائلاً في لهجة تحمل قدراً من التمنّي:

– دعنا ننتظر الآن. ربّما لن يحدث شيء.

عجب عمّار لتلك المسحة من الرجاء الأقرب إلى استجداء متضرّع التي عبرت على صفحة وجهه سريعاً.

جلس عمّار على تبّته المفضّلة يفكّر.

مرّ عليه اليومان الماضيان بخطىً ثقيلة، وبدا له أنّ عالم الواحة انقلب رأساً على عقب خلالهما. رفض أبوه أن يخبره شيئاً بعدما خرج من خيمة الشيخ، لكنّه، ويا للعجب، لم يغضب حين أخبره بموضوع حليب الماعز الذي صبّه له سيّد القبيلة وزعيمها.

بدا هو وأمّه ساهمين، وحملت عيونهما كثيراً جدّاً من الحزن. لا بدّ من أنّ خطورة كبيرة تكمن في تلك المهمّة التي ينبغي عليه أداؤها. حار الصبيّ في مشاعره، أيخاف؟ أم يشعر بالفخر لأنّه سيسدي خدمة كبيرة، في ما يبدو، لواحته؟

تجنّبه أهالي الواحة بنحو لم يفهمه. كانوا يتجنّبونه وفي أعينهم يرقد الفضول، ويكاد أصدقاؤه يسألونه تأكيداً لما يسمعونه من أخبار غريبة ولكنّهم يمسكون. مرّة أخرى حار الصبيّ: أهو ابتعاد يوجبه الاحترام والرهبة؟! أم هو ابتعاد عن حامل وباء قاتل، أم هو كلاهما؟!

ما هي هذه المهمّة العجيبة؟! يكاد يموت فضولاً وغيظاً، ويكاد يهتف بالواحة كلّها أنّهم يعرفون ما لا يعرفه، وأنّه هو الذي تجب عليه تلك

المعرفة لا هُم.

عبث بعصاه الصغيرة في الظلام قليلاً. في العادة يسود الضوء الآن، قليل منه قبل مجيء الشمس، لكنّ الدنيا ما تزال غارقة في ظلام لم تنره المشاعل التي اعتاد رجال الواحة إبقاءها على البُعد بجواره، لأنّهم لم يتسامروا في اليومين الماضيين من الأساس.

سكون غريب ميّز اليومين الماضيين، وكأنّ الدنيا نفسها تنتظر شيئاً ما. عاد إليه خوف مبهم من الذئاب حسب أنّه ودّعه منذ فترة بدت لعمره الصغير طويلة. جلسته على التبّة التي أصبحت عادةً مريحة، وأصوات السمر القريبة ومشاعلها لطالما طمأنته، وحقيقة أنّه لم يتعرّض له ذئب من قبل، والتي أدهشت أباه والواحة قبلاً، أكسبته ثقة متزايدة. الآن لم يجد لها مبرّراً.

استمرّ في عبثه بالعصا. يخطّ خطوطاً ودوائر لا يدري معناها. مجرّد خطوط عشوائيّة تتقاطع وتتشابك. الآن بدأ يسأل نفسه إن كانت تعني شيئاً آخر بعيداً لم يكن على البال، مثل كلّ ما يحدث الآن. قد يكون كتب فوق الرمال قصص النبوءة والعجوز الغريب، والشيخ الوقور، وشامتيه الخضراوين.

بل ربّما كتب أيضاً تلك الحادثة الغريبة، التي يبدو أنّ الناس جميعهم يعرفونها ما عداه، فيتجنّب الرجال سؤال أبيه الصامت، وتحاول النساء التقاطر على أمّه الصامتة أيضاً، ولكن بحزن ظاهر وطافح على وجهها.

نعم. قد يكون كتب تلك الحادثة، وقد يكون العجوز الغامض قرأها فقرّر أن يكلّمه، مثل خطوط القهوة الطويلة الحلزونيّة التي احترفت صديقات أمّه قراءتها.

عجب لما يفكّر فيه. صحيح أنّ أباه كان يفتخر به وبعقله، ولكن ليس لهذه الدرجة، وكأنّ ثلاثة أيّام فقط غيّرت دماغه، وفتحت عينيه على أشياء مستغلقة وغامضة على صبّي في سنّه.

تنهّد وهو يرفع رأسه للسماء. يا الله! ما تزال مظلمة قاتمة. شيء غريب. المفروض أن يكون ساد الدنيا نور هادئ منذ وقتٍ مضى. شعر

بالحيرة وهو ينظر إلى النجوم، هاله توجّس: بدا كأنّ مواقع النجوم متغيّرة بعض الشيء. ربّما عُكست؟! بل إنّ هنالك نجوماً كاملة عجز عن تحديد مواقعها في صفحة السماء.

تملّكته حالة من الذهول. جلس مبهوراً وقد أحسّ بحركة مربكة في معدته. شعور الخوف ممّا يحدث، كمقدّمات لحدث عظيم، كان شعوراً جديداً عليه تماماً. الأمر ليس كالإحساس بظهور الذئب من وراء التلال، أو التوجّس من الأفاعي الضخمة، أو الصغيرة الطائرة. لا. إنّ الأمر خطير وخطير جدّاً، لأنّه لا يعرف ما هو بالضبط.

تسارعت أنفاسه وضربات قلبه قطعت عليه طريق التفكير. لم يقدر سوى على القيام ببطء، في غمرة الليل الحالك، وقد مرّ كلّ ما يذكر من لحظات حياته أمام عينيه. تريّثت صور الشيخ المهيب واليومان الأخيران في مرورها. داخله شعور مبهم بالراحة. هو يدرك الآن ما سبب النظرة في عينيْ الشيخ، حدّتها وقلقها، توتّرها ثمّ تظاهرها بالراحة والاطمئنان.

الهواء الذي هبّ فجأة ضربه من كلّ الاتجاهات. شعر بأنّ هنالك العديد من الناس يخطون في ثبات في دائرة هو مركزها. أدار بصره حوله، لم يستطع تبيّن شيء. ما زال يحسّ أنّهم يقتربون منه، عجز عن التنفّس للحظة مع كلّ الهواء المضطرب من حوله، وكأنّ هذا الهواء مجرّد خدعة. مزحة. لكنّ الحقيقة الوحيدة أنّه لا هواء هنا.

بلغ الرعب مداه الآن. قواه تخور وقدماه تعجزان عن حمله. سمع اسمه يتعالى في الفضاء. صوت أبيه المتميّز في الراء الممطوطة لاسمه، وعندما استدار إلى مصدر الصوت، ناحية الواحة، فوجئ بمشهد لن ينساه أبداً.

كانت الواحة كلّها مضاءة بأنوار آلاف القناديل.

هذه المرّة لم يتمالك نفسه.

سقطت دمعتان من عينيه، لتحفرا طريقاً عبر خدّه، استقرّت إحداهما في فمه، مانحةً إيّاه طعمها المالح المتميّز، بينما أكملت الأخرى طريقها

لتسقط على ملابسه، تاركةً رعشةً متميّزة على جلد ذقنه، قبل السقوط.

ربّت أبوه فخذه مطمئناً إيّاه. حاول ارتجال ابتسامة جاءت شاحبة كمنظر الواحة الغريب، برجال ونساء وأطفال وعجائز قبيلتها الذين تجمّعوا أمامه، حاملين المشاعل ومن ورائهم القناديل تنير ساحات الخيام ومحيط البحيرة الكبيرة. كان المنظر شائهاً في عيني عمّار لأنّه لم يكن معهوداً. منظر لم تُردْه الواحة أبداً ولم ترغب فيه.

أحزان عميقة في العيون اللامعة بفعل دموع مكبوتة أو اندهاش. ربّما داخل سريرتهم فرحة وفرج ما، لأنّ أولادهم هم كانوا في حِلٍّ من هذه النبوءة المشؤومة ورحلتها المجنونة.

من فوق ظهر الجمل أصيل، ذلك الذي استبانت فيه تقاطيع العجوز الحكيم كأبلغ ما يكون، كان يستطيع أن يرى ذلك جيّداً، وإن لم يدرك أغلبه. ظلّ الشيخ صامتاً بجوار أبيه، وعلى عكس عادته، كان يتجنّب النظر في عينيْ عمّار.

سبعون عاماً على كتفيه علّمته الكثير، لكنّ مخزون الدهشة لا ينفد أيّها الشيخ. من بطن الصحراء تطلع الأشباح القديمة الجديدة التي لطالما اعتقدنا أنّها قابعة ساكتة ميتة في أرحام رمالها. تلك الصحراء نفسها كم ظننّا أنّنا فهمناها وألفناها، بل وصادقناها. لكنّها، في عدد ملحوظ مؤلم من المرّات، تؤكّد لنا أنّ مزاجها عصبيّ غريب.

سأل نفسه مراراً ما جدوى أن يرسل صبيّاً صغيراً، ليلقى حتفه على الأرجح، في رحلة يائسة عصيبة؟!!

راجع نفسه المرّة تلو الأخرى. القدر مكتوب، والقسمة نافذة. وما كان يجب أن يكون، وما صار يجب أن يصير، والموت سيدرك الفتى، سيدركه إن بقي في الواحة أو فشل في رحلته. المعنى أنّ المخاطر في حقيقتها لا تعني له شيئاً.

رغم كلّ ذلك، لم يستطع أن ينظر في عينَي الفتى الصغير الذي تحسّس حقيبته لمرّة أخيرة، قبل أن يلقي التحيّة بصوت مخنوق، سبّبته

دموع محتبسة في أعماقه على الأرجح.

الواحة وراء عمّار تبتعد. سأل عن الطريق فقالوا القدر. سألهم عمّا يعنونه، فقالوا أن اترك أصيلاً يمضي في طريقه، ودع نفسك أنت تختار الطريق الذي يخطر في بالك.

منحه الشيخ مرآةً مربّعة، قبل أن يغادر خيمة الأسرة الصغيرة. نظر إليه في حيرة. ابتسم الشيخ ابتسامة باهتة وقال إنّها من النبوءة. غالب الشيخ كبرياءه وأردف أنّه شخصيّاً لا يعرف الفائدة من ورائها.

على أطراف الواحة ما يزال الأب واقفاً. أمكنه بصعوبة تمييز أصيل متحرّكاً بابنه على ضوء النجوم البعيدة. كبر الولد واختطفه القدر. سأل نفسه إن كان حسد الولد اليافع الذكيّ. لو كان الأمر بيده لما أطلقه، لكنّ الواحة، بل والصحراء كلّها، يتوقف مصيرها على تلك الرحلة التي لا يُدرى لطريقها نهاية حقيقيّة. زوجته في المنزل، ولا بدّ من أن يعود إليها. لم تقدر أن تشهد ذهاب الابن الوحيد. هي تعلم منذ ولادته أنّه موعود بالنبوءة القديمة من شامتيه، ولكنّها دائماً ما كانت تتعزّى بأنّ تلك النبوءة لن تتحقّق أبداً. حتّى عندما بلغها الأمر لم تصدّق. كشفت عن كتفي الفتى لترى الشامتين وكأنّها تراهما للمرّة الأولى في حياتها. تبكي هي في عزلتها وتحتاج إليه، جاهد لانتزاع نفسه من مكانه، لكنّه لم يستطع.

أصدر أصيل خواراً طويلاً. يحسّ عمّار بجسده المضطرب. ما حدث شيء رهيب ولا بدّ من أن يجعله كذلك، بل ربّما أكثر.

اعتادت عيناه الظلام أكثر فأكثر. أمكنه تمييز نقاط مشتعلة بعيدة. إنّها واحات أخرى تقاوم الظلام.

قبل وقت ليس بالبعيد، جاء أبوه إلى تبّته المعتادة ثمّ اصطحبه إلى الخيمة. هنالك وقف الشيخ وحيداً. وحيداً كما قابله في المرّة الأولى. رأى منه يديه المتشابكتين وراء ظهره، ورأسه المطرق قليلاً إلى أسفل.

استدار إليه ثمّ قال بحزن:

– إذن يا فتى، فقد كنت أنا محقّاً.

بدأ بالمشي عبر الخيمة، ناظراً إلى أطراف خفّه وهو يتابع:

– أتعلم؟! لقد لمت نفسي على الأمر الذي أصدرته بالبحث عنك، ولمت نفسي أكثر عندما التقيت بك. تردّدت في أن أخبرك بالأمر. قلت في نفسي إنّ من المفيد أن أمنحك برهة من الوقت لكي تفكّر، وتستعدّ قبل وقوع الواقعة.

توقّف الشيخ، ونظر إلى وجه الصبيّ المنتصب أمامه كحرف الألف، وأبيه الجالس في توتّر ثمّ أكمل:

– والحقيقة أنّ جزءاً منّي مسرور لحدوثها.

بدت المفاجأة على وجه الأب، بينما بان التساؤل على وجه عمّار، فيما أكمل الشيخ:

– جزء منّي مسرور لحدوثها لأنّني أحبّك أيّها الفتى. لأنّك تبدو شجاعاً ذكيّاً طيّب القلب. لم أتمنَّ أن تقضي حياتك كلّها تتساءل عن رحلة ما، ربّما لن يأتي موعدها أبداً. القدر أنقذك من أيّام بلا طعم وأنقذني أنا من تأنيب الضمير. نعم. جزء منّي فرح لأنّ القدر منحنا ما وعد دون إبطاء.

تطلّع عمّار إلى الشيخ المهيب وقلبه يتواثب بين أضلعه. تكاد عيناه تنطقان بما يختلج في أعماقه. راقبه الشيخ وتسلّلت ابتسامة ما إلى شفتيه. أومأ إليه برأسه مطمئناً برفق أن تكلّم.

– و... وما هي هذه الرحلة بالضبط؟!!

اخترقه الشيخ بنظرة نفّاذة قائلاً ببطء:

– أنت تعلم.

عاودت أذنا عمّار احمرارهما. لم ينبس ببنت شفة:

أكمل الشيخ:

– نعم. هذا صحيح. اختفت الشمس. وستذهب أنت لإحضارها.

فجأة. تخلخلت الأرض، وتعالى حائط دائريّ من الرمال.

وجد عمّار نفسه في المنتصف تماماً. أصيب أصيل بالذعر وطفق يتحرّك في توتّر. الآلاف من ذرّات الرمال سقطت عليه كمطر قاس، وذلك الحائط، أو الجدار الغريب، يرتفع إلى الأعالي.

شعر عمّار بمعدته أسفل قدميه. البرودة القارسة زحفت إلى أطرافه، وانتصبت شعيرات ذراعيه القليلة. الغريب أنّ هذا الجدار لم يرتفع من الرمال ككلّ واحد، بل كطبقات تلتفّ وتستقرّ فوق مثيلاتها الدائريّة، يرتفع الجدار بسرعة البرق، تاركاً دائرة لا يُفصل بين حافاتها وأنف أصيل أو ذيله غير سنتيمترات قليلة.

الحركة الهادرة تبعها صمت عميق غريب، جثم على صدر عمّار كالموت. في آخر الحائط دائرة أخرى سماويّة، بدا كأنّ نجمها الوحيد تألّق للحظة خاطفة.

رائحة قويّة تسلّلت إلى أنف الفتى. رائحة لم يشمّها قطّ من قبل، ولا يعرف كنهها أو مصدرها، لكنّ الشيء الوحيد الذي يعرفه هو أنّها تثير شعوراً مروّعاً بالانقباض.

الصمت ما يزال جاثماً. الرائحة ما تزال هنا. وعرق كثيف أغرق جسده.

ما الذي سألقاه داخل هذه الرحلة الملعونة! سأل نفسه مجدّداً بعد دقائق أخرى من الصمت، الذي يوحي كأنّ هذه الدائرة موجودة هنا منذ بدء الخليقة، وكأنّه لم يحدث هنا شيء غريب قبل لحظات قليلة، وقليلة جدّاً أيضاً.

بدأ تنفّس عمّار يرجع إلى حالته الطبيعيّة. تيّار تفكيره المتخبّط بدأ بسؤاله اليائس. الفزع يضرب جدران معدته والسؤال المحموم في أذنيه: كيف يمكنني أن أخلص من هذا المأزق؟!

أخذ نفساً عميقاً. يجب أن يهدأ. لقد قال له الشيخ:

– سترى أهوالاً لم تتخيّلها، وأشياء لم تتجلّ لك حتّى في أبشع كوابيسك.

نعم. هذا شيء لم أتخيّله. ومن أجل أن أجد لنفسي مخرجاً لا بدّ لي من الهدوء. الهدوء التام والتركيز.

أغمض عينيه وأخذ نفساً عميقاً آخر. أولى المصائب ولم يمضِ له إلّا بعض يوم في تلك الصحراء المظلمة. فعل ما أُمر وترك أصيلاً يتحرّك بغير هدى. وها قد أحضره إلى هنا.

مدّ ذراعه الأيمن إلى آخر ما يستطيع. فكّر أنّه إن كانت الطبقات دائريّة فسيتمكّن من تسلّقها إلى أعلى. ولكن، ماذا بشأن أصيل؟ قُطع حبل أفكاره عندما لمس الجدار الدائريّ.

ارتدّت يده إلى صدره كالملدوغ، انتفض بقوة وكاد يقع، لولا أنّه ارتطم ظهره مرّة أخرى بالجدار الملعون. خار أصيل بقوّة وتحرّك بعصبيّة مفرطة. يمكنه الآن أن يقع ويموت تحت أقدام الجمل المذعورة.

الفزع يغشاه الآن كما يغشى البحر الجسد السابح، موجاته تزحف إلى عقله حاملةً برودة مقبضة. هذا الجدار ما هو إلّا...

– لحم.

صوت كريه قدم من الأعلى. صوت كالفحيح، أو هو فحيح فعلاً.

رفع رأسه المذعور. هناك، عند الدائرة السماويّة، كان يقبع وجه مثلّث قبيح، تحفّه الحراشف ذات الرائحة القويّة التي ضربته سابقاً، وعينان فسفوريّتان مرعبتان.

انتفض عمّار من فوق الجمل فوقع هذه المرّة. خبط ظهره في الأرض خبطةً مؤلمة. عيناه مركّزتان مع تينك البقعتين الفسفوريّتين. حاول أن يقفز واقفاً لكنّه لم يستطع، تجمّد هكذا راقداً على ظهره، على يساره تجمّد أصيل أيضاً بشكل غريب.

استمرّ الفحيح:

– رائحة عرقك لذيذة جدّاً. لا بدّ من أنّني سأستمتع بالتهامك.

على ضوء الفسفور الآتي من عينَي الأفعى الضخمة، شاهد عمّار لسانها المشقوق يكاد يقترب من جسده الذي انقبض وسادته موجات متلاحقة من الارتعاش.

– أنت الصبيّ المطلوب. أليس كذلك؟! لا غرابة إذن في كونك وجبة شهيّة.

لمح عمّار في رقاده لعاباً كثيفاً يسقط من فم أصيل إلى الأرض. هو مذعور مثله وزيادة. أغمض عمّار عينيه. إنّها النهاية. لا بأس. هو لا

يستطيع محاربة أفعى ضخمة مثل هذه. الروح تبدأ بالانسحاب ببطء خارج الجسد.

– انتظر. موتك لم يُحسم بعد.

حمل الفحيح نبرة استمتاع. فتح عمّار عينيه متسائلاً.

– هو سؤال واحد. أجب عنه تصبحْ حرّاً. وفوق ذلك سيعرف جملك طريقه بما أملكه من قوى.

سكتت الأفعى ناظرةً إليه. لسانها المشقوق ما زال يقترب منه ويبتعد. العرق البارد ينساب على جبهته. فكّر أنّه لا يمكن أن يخسر شيئاً في أيّ حال. هتف:

– حسناً..

– من سبق الآخر: اليابسة أم الماء؟!

كانت لحظة صمت لا بأس بها. انتاب عمّار لأوّل وهلة شعور بالسخط. كيف يعرف هو إجابة هذا السؤال؟! ما يدريه ماذا سبق ماذا، ثمّ هدأ قليلاً وفكّر في أنّ هذه هي حكمة السؤال. لن تسأله الأفعى عن اسم أبيه مثلاً. عصر دماغه باحثاً عن خيط يقوده إلى حلّ هذا اللغز. أزعجه شعور باليأس تسلّل إليه بينما هو في محاولته المستميتة. سألته الأفعى:

– هه؟!

نظر إليها عمّار وتردّد قليلاً، قبل أن يستجمع شجاعته ويقول بحلق جاف:

– الماء.

– الماء.؟ ولِمَ؟

– لأنّ الماء هو سرّ الحياة. بدون الماء تموت أعشاب الأرض، وما دام الأمر كذلك فلا يمكن أن تكون اليابسة المليئة بالحياة سبقت الماء.

قالها في النهاية وسلّم أمره لله. نظر إلى وجه الأفعى الذي ظلّ بلا حراك وأيقن أنّه أجاب إجابة خاطئة. سيموت لا محالة.

– لا. إجابتك صحيحة يا فتى.

أتاه فحيح الأفعى فردّه إلى الحياة. زفر زفيراً عميقاً من داخل صدره.

أغمض عينيه متعباً وهو يهتزّ. سألت الأفعى:

– أنت ذاهب لإحضار الشمس. أليس كذلك؟

هزّ رأسه بأن نعم، فقالت:

– احذر إذن أيّها الصبي. في عالم بلا شمس ستجد أهوالاً لم يعرفها بشر من قبل. ناموس الحياة تغيّر إلى حين وتغيّرت معه ظروف الدنيا. لولا اختفاء الشمس لما كنت أنا هنا الآن. أتسمع؟

هزّ عمّار رأسه قائلاً:

– نعم. أسمع جيّداً.

– حسن جدّاً. صحبتك السلامة.

قالتها الأفعى ثمّ تهاوت الرمال فوق عمّار وأصيل من كلّ اتّجاه كالإعصار. أحنى رأسه وأغمض عينيه بقوّة حتّى لا تتسرّب إليهما الرمال. وعندما هدأ ذلك الإعصار الغريب، وساد المكان الصمت تماماً، فتح عمّار عينيه فلم يجد سوى الصحراء الممتدّة أمامه، وأصيل المذعور.

كانت واحة صغيرة، مضاءة بالقناديل مثل واحته تماماً.

كان يمشي بجوار السيّدة الوسيمة التي رأته داخلاً إلى الواحة، ماسكاً سرجاً أصيلاً بيد، وحقيبة زاده في اليد الأخرى. حمد الله أنّه قد وجد هذه الواحة لأنّ ماءه قد قارب النفاد. التفتت إليه السيّدة وقالت وهي تشير بذراعها يميناً:

– بيتي من هنا.

حوّل عمّار اتّجاهه تبعاً لإشارتها. أخذ ينظر إليه الناس الذين بدا شيء من الرعب على وجوههم وهم ينظرون إليهما، ولاحظ أنّهم يتحاشون الركب الصغير.

أتاه صوت السيّدة:

– كلّهم أصبحوا غريبي الأطوار بعد ذلك الحادث المروّع. أحمد الله أنّني رأيتك، وإلّا لكنت ستواجَه بالعَداء والنكران. هم يكرهون الغرباء الآن.

فكّر عمّار في النبوءة، وأنّ مفتاحها كان عجوزاً غريباً. لا عجب من الرعب الذي يرمقونهما به إذن.

وصلا إلى بيت صغير، أشارت السيّدة إلى مربط يقبع بجوار الباب بقليل وقالت:

– يمكنك ربط جملك هنا، ثمّ تفضّل بالدخول من أجل الطعام والنوم.

– شكراً جزيلاً.

فعل عمّار ما قالته له السيّدة الجميلة ثمّ دلف إلى المنزل. استقبلته بابتسامتها العريضة وقد وضعت صحوناً من الطعام الشهيّ أمامها. قالت له:

– تفضّل.

أقبل على الطعام مرحّباً وشاكراً. راقبته السيّدة وهي تبتسم. قالت له:

– أتعرف؟! أنت تشبه ولدي باسم تماماً.

ابتسم عمّار لها، وازدرد اللقمة التي كانت في فمه سائلاً:

– وأين شبيهي هذا كي أحيّيه؟

تنهّدت السيّدة وقالت بأسىً:

– هو في السماء.

أحسّ عمّار بإحراج شديد. احمرّ وجهه وتوقّف عن الأكل فرجته السيّدة أن يكمل، ثمّ أردفت:

– أنت تذكّرني به، وأرجوك اسمح لي برعايتك لأنّني أحسّ كأنّي أرعى ولدي.

هزّ لها عمّار رأسه مؤمناً وهو ما زال محرجاً. دفن رأسه في صفحة الطعام، وسمعها تسأله:

– ولكنّك صغير على أن ترتحل وحدك هكذا في الصحراء، ولا سيّما بعد اختفاء الشمس الغريب هذا.

لم يجد عمّار ما يردّ به. كاد يخبر السيّدة الوسيمة بمهمّته ولكنّه خجل. رأت هي أنّه كان يهمّ بالكلام ثمّ توقّف، فبادرته:

– يبدو أنّ في الأمر سرّاً. على العموم هي خصوصيّاتك ولن أتطفّل عليك.

صمت مبتسماً. أرشدته إلى حيث غسل يديه، ثمّ تساءلت إن كان يودّ أن ينام. أجابها موافقاً. لقد كان متعباً جدّاً.

دخل إلى غرفته فوجد فراشاً وثيراً. أبدل ملابسه بملابس أكثر راحة من حقيبته ثمّ ألقي بنفسه على الفراش. تثاءب وهو يهمس لنفسه بأنّه محظوظ حقّاً. ثلاثة أيّام بعد مقابلة الأفعى وهو يمشي بأصيل بغير هدى. لاحت له تلك الواحة ثمّ رأى تلك السيّدة الطيّبة الوسيمة حاملةً جرار مائها. النوم يأتيه في موجات كالمدّ والجزر. لم يعهد هذا التعب والإجهاد في جسده من قبل. يشعر بأنّ عليه أن ينام عميقاً جدّاً.

الفراش تحته دافئ وناعم. هو محظوظ ولا شكّ. إن لقي أحد سكان الواحة فربّما شجّ رأسه. موجة النوم الجديدة غمرت دماغه، وعندما انسحبت سمع صوتاً عجيباً يأتي من بعيد.

حاول عمّار تجميع شتات أفكاره. ما هذا الصوت الغريب؟ إنّه... وغمرت موجة أخرى من النوم دماغه. تصاعد الصوت الغريب ثانية. ما هذا الصوت؟! هو خوار؟! حشرجة؟! لا يدري. حدّث نفسه بأنّه يتخيّل هذه الأصوات. من داخله تمدّد النوم مرّة ثانية. لا. إنّ هذا الصوت حقيقي ويخرم أذني. نفض عمّار رأسه يميناً ويساراً، وفتح عينيه على اتّساعهما أكثر من مرّة محاولاً الانتباه. أصاخ سمعه ليحدّد مِن أين يأتي هذا الصوت. كان يأتي من داخل المنزل ولا شكّ.

قام بحذر إلى حيث الباب. فتحه فتحةً صغيرة تكفي بالكاد للنظر إلى الردهة خارجاً.

ثمّ وقف شعر رأسه في رعب.

كانت السيّدة الوسيمة واقفةً في وسط الردهة. وجسدها يتماوج وتهتز صورته. نصفها السفليّ مغطّى بالشعر الذي يتصاعد إلى الأعلى. جسدها كلّه يغزوه الشعر بينما هي تخور بصوت عالٍ. وجهها الوسيم تحوّل إلى آخر بشع مقزّز.

وجد نفسه يصفق الباب بعنف ويتراجع بظهره إلى الوراء. ولعجبه أحسّ بالنوم يحاول غزوه ثانيةً، نفض رأسه ثانيةً بعنف وهو يمدّ يده إلى حقيبته ويخرج ما بها بسرعة. كان يبحث عن أيّ شيء يمكن استخدامه كسلاح.

سمع خواراً قويّاً، ثمّ فُتح الباب.

وقفت أمامه من كانت السيّدة الوسيمة بملامحها الجديدة البشعة. جسدها كلّه مليء بالشعر الآن. فغرت فمها عن أسنان حادّة صفراء، وهي تتكلّم متحشرجةً:

– عجباً. أنت لم تنم.

لوّحت بيدها التي انبثقت منها المخالب وهي تخور قائلةً:

– من الممتع أكل بشر في كامل وعيهم من وقت لآخر.

يده ترتعش وهو يخرج ما في الحقيبة. ينظر إلى الأشياء ثمّ إلى الغولة بالتساوي. عضّ على شفتيه حتّى أحسّ بطعم الدماء في فمه. ماذا يفعل الآن؟!!!!

بدأت بالاقتراب منه فابتعد إلى ركن الحجرة حاملاً معه الحقيبة في حركة غريزيّة. كانت تحادثه ساخرة:

– أعلِمت الآن لِمَ كان أهل الواحة يتجنّبوننا؟! بيني وبينهم اتفاق. آكل أنا الغرباء وهم لا يتدخّلون من أجل ألّا آكل أبناءهم.

لم يبقَ في قاع الحقيبة غير المرآة. فكّر في أنّه يمكنه كسرها إلى قطع حادّة من الزجاج يستخدمها في الدفاع عن نفسه. مدّ يده المرتعشة داخل الحقيبة بينما كانت الغولة تتشمّمه وهي تكشّر عن أنيابها، وبدا من تحفُّز عضلاتها أنّها على وشك الهجوم عليه. أكملت حشرجتها الساخرة:

– عمَّ تبحث يا فتى؟! لا توجد أيّ وسيلة من وسائلكم البشريّة تنفع لقتلي يا أيّها الفتى البائس.

خرجت يده بالمرآة فأجفلت الغولة وتراجعت إلى الوراء. كاد عمّار يكسر سطح المرآة كما نوى لولا أن لاحظ حركتها المفاجئة هذه. وقف كلّ منهما بمواجهة الآخر بلا حراك. كُلّ منهما يراقب الآخر بحذر. حرّك عمّار يده

الحاملة للمرآة حركة وئيدة إلى الأعلى فتراجعت الغولة للوراء أكثر. غزاه الأمل في أن يخرج حيّاً من هذا البيت. أخذ يتحرّك إلى الأمام والغولة تتراجع إلى الخلف. سيتقدّم إلى أن يخرج إلى أصيل ليركبه ويتركها وراءه. هذا ما فكر فيه مثبّتاً نظره على الغولة بحذر لكيلا تقوم بحركة مفاجئة وهي تتراجع. تصاعدت حشرجتها الغاضبة وهي تنظر إليه، ولكن تلك الحشرجة كانت تتصاعد بهدوء حذر أيضاً.

خطر في باله أن ماذا سيفعل لو جفل منها أصيل وهرب؟ أو إن لم يجفل، فكيف يضمن أنّها لن تفتك به لحظة ركوبه الجمل؟ حدّث نفسه أنّه لا بد من أن يجد حلّاً لتلك المعضلة.

وصلا إلى حيث الباب. اقتربت اللحظة التي يخشاها عمّار بقدر ما يتمنّاها. وجد نفسه يفكّر: لماذا تخشى الغولة تلك المرآة؟! نظر إلى سطحها نظرة خاطفة فلمح وجهه المليء بالتوتر. انهمرت الأفكار في رأسه فجأةً كالسيل. ما هو استخدام المرآة؟ أن ننظر فيها طبعاً. سطح المرآة موجّه إليّ أنا، والغولة تخشى أن يكون سطحها في مواجهتها هي. قطع حبل أفكاره وعزم على تجربة ما يدور في ذهنه. تحرّكت يده لتدير المرآة لتكون في مواجهة الغولة التي أدركت بغريزتها ما نواه عمّار فقرّرت الهجوم.

وهكذا، كان عمّار يرفع يده بالمرآة في مواجهة الغولة التي لم تفرق أنيابها ومخالبها عنه سوى مسافة ثانية واحدة، عندما سطع ذلك النور الذي أضاء البيت جميعه.

لقد رأت الغولة نفسها في المرآة التي سطع منها النور. تجمّدت لثانية، قبل أن تصدر صرخة هزّت جنبات الواحة ولون شعر جسدها يتحوّل إلى الأبيض ووجهها القبيح يمتلئ بالتجاعيد، ووقفتها تفقد انتصابها المشدود إلى حالة تهالك وضعف، ثمّ بدأ شعرها بالتساقط، وجلدها نفسه بالتساقط عن جسدها ووجهها. كانت الغولة تهرم وتشيخ ملايين السنين في لحظة واحدة.

وعندما سقطت بكاملها في النهاية على الأرض كانت هيكلاً عظميّاً

سرعان ما تبخّر هو الآخر أمام عيني عمّار المندهشتين.

كان عمّار متعباً بالفعل.

تأمّل الصحراء الممتدّة أمامه على نور نجوم السماء. لم يعد هناك قمر منذ أن اختفت الشمس. وكما لاحظ هو من البداية، فقد كانت النجوم في غير مواضعها التي اعتادها. ظهرت نجوم واختفت أخرى. ضوء النجوم ينير للبشر الطريق قليلاً في ذلك الظلام البهيم. ونار ما تلمع من بعيد.

اهتزازات حركة أصيل منحته شعوراً بالرتابة. ها هو يمضي به إلى طرق جديدة لم يعهدها. قالوا له في الواحة أن اتركه يرشدك إلى الطريق، وبالطبع أرشده إلى مكان أفعى ضخمة كادت تلتهمه. ثمّ قالت ذات الأفعى إنّها سترشد جمله إلى الطريق، وبالفعل أخذه إلى حيث تنتظر غولة.

إلى أين تأخذني هذه المرّة يا أصيل؟!

أحسّ بالعطش، فأدار يده إلى ما خلف ظهره ليلتقط قربة الماء. تجرّع منها جرعة كبيرة ثم أعادها إلى حيث يرقد زاده. تكفّل أهل واحة الغولة بمنحه حقائب ثقيلة من الطعام والتمر شكراً له على تخليصهم من كابوس أقضّ مضاجعهم. أخذ منها ما يقدر أصيل على حمله وردّ الباقي شاكراً بدوره. تذكّر عندما سأل أباه عن زاده قبل أن يترك الواحة، ردّ عليه بألّا يقلق.

إذن، سيحاول ألّا يقلق.

فجأة، صكّت أذنيه صرخات استغاثة آتية من مكان ما أمامه. مدّ عمّار نظره إلى مصدر الصرخة. كانت تأتي من حيث النار التي لمحها في البداية. أصبح غير بعيد في هذه اللحظة، فتبيّن رجلاً عجوزاً محاطاً بثلّة من الذئاب يصنعون دائرةً هو محورها.

الذئاب أخيراً.

شدّ لجام أصيل متّجهاً إلى حيث العجوز. شعر ببعض الإحجام في حركة جمله، لكنّ الجمل لم يملك سوى تنفيذ أمر صاحبه، وصاحبه لم

يسمح لنفسه بالتردّد. سيعدو عمّار بجمله القويّ مخترقاً الدائرة ليلتقط العجوز ويمضي بأقصى سرعة. العواقب غير محمودة بالطبع، لكنّه لا يمكنه ترك العجوز وحيداً.

يقترب أصيل من دائرة الذئاب عدواً. توتّر الجمل يزداد وعمّار أيضاً، يقبض بفخذيه على جسد الجمل. يعضّ على نواجذه عندما لا تعود تفصلهما عن الدائرة غير خطوة واحدة.

كان العجوز ينادي في يأس وهو يحاول إبعادهم بعصا مشتعلة في يده:

– أنقذني أرجوك.

واخترق أصيل الدائرة مسرعاً وسط زمجرة الذئاب الشرسة. مدّ عمّار يده إلى العجوز وهو يقترب منه بسرعة. حمد الله أنّ الذئاب لم تقفز على مؤخّرة أصيل عند الاقتحام. هتف بالعجوز:

– هيّا.

قبضت يد العجوز القويّة على يده. وفي اللحظة الأخرى كان عمّار مطروحاً على الأرض. لقد جذبه العجوز إليه متعمّداً. أكمل أصيل عدوه مخترقاً جدار الدائرة الثاني، مناوراً ببراعة ذئبين حاولا القفز على ظهره أو عقر رقبته.

رجع عمّار ببصره إلى حيث كان العجوز، ولكنّه لم يره. رأى ذئباً ضخماً بدلاً منه. خُيّل إليه أنّ هذا الذئب الضخم يبتسم، قبل أن يخرج منه صوت عميق يقول:

– أهلاً بك أيها الفتى. أرأيت الذئاب أخيراً؟!

تسلّلت إلى أنف عمّار رائحة لا تقلّ بشاعةً عن رائحة الأفعى. وسمع صوت تشمّم بقيّة الذئاب له بجنون متوحّش. لدهشة عمّار لم يجد نفسه فزعاً مثلما كان مع الأفعى والغولة. ساده نوع من الاستسلام لأقدار هذه الرحلة العجيبة. وجد نفسه يفكّر فقط في كيفيّة الإفلات من هذا المأزق. قال للذئب:

– أصبح لديكم القدرة على التحوّل إذن؟

أجابه الذئب في رنّة فخر:

– نعم. ولكنّ الذئب الرئيس في كلّ قطيع هو من يقرّر شكل التحوّل. هو فقط.

– وأرى أنّك أنت رئيس هذا القطيع.

– نعم.

قالها الذئب وعيناه الصفراوان تشتعلان بشراسة دمويّة. اقترب منه أكثر وهو يزمجر مثله مثل بقيّة قطيعه. نظر عمّار إلى حيث النار، فالتفت الذئب إلى حيث ينظر ثمّ عاد إليه قائلاً:

– بعدما غابت الشمس لم تعد الذئاب تخاف النار.

ثمّ تركه فجأة وعدا إلى حيث النار، التقط بفمه قطعة من الخشب المشتعل وعاد بها إلى عمّار. وجد عمّار أنّ الذئب هو من يهدّده بالنار. تراجع حتّى ألقى الذئب قطعة الخشب من فمه ونظر إلى الفتى بتحدٍّ.

أهي النهاية حقّاً؟! حدّث عمّار نفسه في تلك اللحظة. كلّما قابل مسخاً يعتقد ذلك بنحو راسخ. عند الأفعى أنقذه السؤال، وعند الغولة أنقذته المرآة. خطرت على باله المرآة، فمدّ يده كالمحموم إلى حقيبته التي التفّت حول صدره. أخرج المرآة منها بينما الذئاب تنظر إليه كمن يتسلّى بسيرك ممتع. مدّ يده على اتّساعها بالمرآة في وجه الذئب، الذي نظر إليها برهة ثم تحوّل إليه سائلاً:

– أتظنّ أنّني وسيم؟!

رأى عمّار في عينيه الاستهزاء. فشل حائط الدفاع الأخير. لن يرى الواحة مرّة أخرى. بدأت الدائرة تضيق من حوله، وزمجرات الذئاب الجذلة الوحشيّة تصمّ أذنيه. وجد نفسه يسأل الذئب في محاولة يائسة لتأخير الحدث المنتظر:

– وهل تستطيع التحوّل إلى أيّ صورة بمثل هذا الإتقان الذي كنته قبل قليل؟ أم أنت بارع في تقمّص صورة البشر فحسب؟!

رأى عمّار الاستهزاء يزداد في عينَي الذئب، وفي اللحظة الثانية كان يري فهداً يبتسم له. أجال نظره في باقي الذئاب فوجدها كلّها فهوداً تنظر

إليه في استهانة. بدأت تتحرّك في دائرتها المعتادة حوله، وصوت الذئب الرئيس يقول:

– أصبحنا فهوداً كما ترى، ويمكننا أيضاً أن نكون زرافات.

ومع كلمته، وجد عمّار أن ما يدور حوله ما هو إلا قطيع من الزراف المسالم. في اللحظة الثانية وجدها خيولاً، فخراتيت، فكلاباً، فقططاً فارسية وديعة، ففراشات، فنسوراً. وفي كلّ تحوّل كان صوت الذئب الرئيس يتعالى مخبراً إيّاه التحوّل المقبل.

وعندما انبهر عمّار بمنظر الحمائم السابحات من حوله، وجد الذئب الرئيس في مواجهته. رجعت الذئاب إلى صورتها الأولى وتعالت الزمجرة من جديد.

تكلّم الذئب قائلاً:

– لولا أنّني أعرفك وأعرف الغرض من رحلتك ما أريتك كلّ ما سبق. أنت تستحقّ عرضاً كهذا قبل موتك.

فجأة. خطرت في عقل عمّار فكرة ما. كان يحسّ بغرور الذئب الرئيس وتعاليه، وأنّه يريد أن يسمع منه كلمات الانبهار. حدّث نفسه أن يستغلّ ذلك، فقال له:

– ولكن ألا يحدّ حجم المخلوق من تلبّسك صورته؟ سواء كان كبيراً جدّاً أو صغيراً جدّاً؟

وما إن أتمّ عمّار كلمته حتّى وجد فيلاً ينظر إليه في وداعة، ويتعالى منه صوت الذئب قائلاً:

– أتعرف مخلوقاً أكبر من ذاك؟

رمق عمّار الذئاب الأخرى المتحوّلة إلى أفيال وقال:

– لا.

تحوّل ببصره إليه فلم يجده، عقد حاجبيه واستدار رامقاً المساحة من حوله فلم يجد شيئاً. تناهى صوت الذئب إليه قائلاً:

– وهل رأيت أصغر من ذلك؟!!

استدار عمّار مرة أخرى ودقّق في مصدر الصوت ووجد نفسه يرتعش

من الفرحة. لقد رأى نملة تمشي على الأرض. جاءته الفرصة مثلما فكّر. سيرفع قدمه الآن وسيسحق الذئب اللعين. تردّد للحظة عمّا نواه. لم يحبّ فكرة أن يتخلّص من الذئب. راجع نفسه سريعاً. لا بدّ من أن تفعلها الآن وإلّا التهمك. رفع قدمه ثمّ هوى بها كالبرق على جسد النملة المزعومة. سمع صوت عواء قويّ يتردّد خارجاً منها. أحسّ بحركة مطّردة تحت قدمه، وجسد الذئب يرجع إلى طبيعته هامداً، رافعاً قدمه من فوق الأرض. نظر حوله مدقّقاً فوجد الذئاب التي كانت في حالة فزع وهي تجري كنمل مذعور. لن تستطيع التحوّل إلى ذئاب بعد اليوم. نجا المسافرون من شرّ هذا القطيع. تهاوى جالساً على الرمال، رامقاً أصيلاً الذي اقترب منه بسرعة.

كانت مدينة غريبة حقّاً.

تأمّل عمّار الطريق الخالي، ككلّ طرق وشوارع المدينة، وهو يمشي بأصيل الهوينى. لا أحد إطلاقاً. يرتدّ إليه صدى خطوات جمله عالياً صافياً فتزداد وحشته. لم يستطع أن يستوعب ما يراه من الوهلة الأولى، عندما دخل المدينة. وجد الذهب والجواهر تُغرق جنبات المدينة في أيّ مكان يقصده. آلاف من الكنوز ملقاة هكذا بإهمال. جال في المدينة على ظهر أصيل فوجد كلّ شيء فيها مرتّباً ومنظّماً. الأسواق وبضائعها، الشوارع ونظافتها، المطاعم التي وضعت الوجبات على مناضدها. بدا كلّ شيء طبيعياً، ما عدا أطنان الكنوز الملقاة هنا وهناك، وكأنّ الحياة توقفت فجأة في تلك المدينة. شعر عمّار بأنّ أهل المدينة سيطلعون من الأركان فجأةً ليكملوا طقوس حياتهم المعتادة. ولكن لم يظهر أحد. صوت الرياح التي تجول بحريّة في أرجاء المدينة المهجورة شكّلت نوعاً غريباً من الموسيقى غلّف وحدته. ترجّل عن ظهر أصيل وربط وثاقه إلى جوار سقيا الخيول، التي لم يرَ منها حيواناً واحداً، وتهالك بجواره. شعر بالحاجة إلى البكاء. لقد بقي متماسكاً أمام الأهوال التي صادفته ولكنّه الآن يشعر بالتعب. فكّر في أنّه وحيد جدّاً وذاهب في مهمّة غريبة للغاية. نظر إلى

الطريق المهجور أمامه وسأل نفسه عمّا يخصه في كلّ هذا. ما له هو وما لكلّ هذه الأشياء الغريبة.

تملّكته رغبة قويّة في أن يقفل عائداً إلى واحته. يكفي ما رآه وخبره حتّى الآن. مشتاقٌ لأمّه وأبيه.

– أأنت من الإنس أم من الجنّ؟!!

أتاه الصوت من ورائه، قام واستدار ليرى رجلاً يقف مستنداً إلى جدار أحد الأزقّة، ينظر إليه بخوف واضح. تقدّم عمّار نحوه وهو يقول:

– أنا...

قاطعه الرجل وهو يتراجع للخلف صارخاً:

– ابقَ مكانك.

رفع عمّار راحتيه في وجه الرجل ليهدّئه قائلاً:

– اهدأ. اهدأ من فضلك. ما أنا إلّا صبيّ.

نظر إليه الرجل في تشكّك، فابتسم له عمّار مطمئناً وقال وهو يشير إلى جمله:

– أنا مجرّد غريب مرّ بتلك المدينة. وها هو جملي هناك.

اشرأبّ الرجل ليرى الجمل ثمّ عاد بعينيه إلى عمّار الذي سأله:

– أهي مدينتك؟

هزّ الرجل رأسه أن نعم، فتابع عمّار:

– وما الذي حلّ بها إذن؟

تقدّم الرجل وقد بدا عليه الاطمئنان قليلاً وهو يردّ:

– لعنة. لعنة كبيرة حلّت بها.

جلس على الأرض، ثم وضع رأسه ما بين راحتيه وهو يكمل:

– أنت الإنسيّ الوحيد الذي أراه منذ حلولها.

جلس عمّار بجواره سائلاً:

– نعم. نعم. ولكن ما الذي حدث بالضبط؟!

– اقتتل الناس على النقود حتّى هلكوا جميعاً.

– لكنّ المدينة تبدو نظيفة جدّاً ومرتّبة جدّاً ولا أثر لحرب ضروس مثل

التي تصفها.

– لست أدري. في اللحظة التي غابت فيها الشمس تماماً، انفجرت تلك الكنوز من باطن الأرض، فأخذ الناس يفتك بعضهم ببعض من أجلها. لقد رأيت دمار المدينة بعينيّ، وستراه أنت بعد قليل أيضاً.

– وكيف ذلك؟

– بعد ساعة معلومة، ترجع المدينة إلى تشرذمها ودمارها والجثث الباقية من المعركة هنا وهناك، وبعد ساعة معلومة أخرى تتحوّل إلى ما تراه الآن.

هزّ عمّار رأسه وهو يقول:

– غريب جدّاً.

– نعم. منذ أن غابت الشمس والأمور على غير ما يُرام. أتعرف؟

– ماذا؟

– يقولون إنّ الشمس غابت من أجل الشرّ الذي استشرى في المدينة.

تنهّد عمّار وقال:

– سمعت ذلك أيضاً في أماكن أخرى من الصحراء.

– ومن أين أنت؟

– من واحة بعيدة عن هنا.

– وإلى أين تقصد؟

– أردّ بعض الأمانات إلى أهلها في بعض الواحات والمدن المجاورة.

لم يشأ عمّار أن يخبره عن سبب رحلته. بدا له من السخف جدّاً أن يقول لأحدهم أنا ذاهب لإحضار الشمس. لو كان مكان الرجل لسخر منه.

قال الرجل:

– وطبعاً تريد بعضاً من الزاد ليعينك على الطريق.

– هذا مؤكّد.

– لا تقلق. هنا يوجد زاد كثير ولا أحد يستخدمه. خير لك أخذه قبل أن يفسد.

ساد الصمت بينهما لبرهة. استند عمّار بكوعيه إلى الأرض، وتراجع بظهره في وضع أكثر راحة، قبل أن يبادر الرجل:

– تقول لي كلّ من في المدينة هلك. إذن كيف نجوت أنت؟!

انقضّ عليه الرجل فجأة وقبض على عنقه هامساً في هدوء:

– لأنّي أنا ساحر المدينة.

انقبض جسد عمّار من هول المفاجأة، زفر بصعوبة بسبب يد الساحر الفولاذية القابضة على عنقه. تابع الساحر:

– وها قد بعثك القدر إليّ أيّها الصبي المأفون.

نظر الساحر في عينيْ عمّار فخُيّل لعمّار أنّ عيني الساحر المصوّبتين إلى عينيه تتّسعان كبئر بلا قرار، بينما أضحى صوته عميقاً واثقاً يتهادى في أذنه:

– ستذهب الآن لتحضر لي كنوز المدينة. ستنقل ما تقدر عليه إلى المكان الذي سأريك. اتبعني.

ترك الساحر عنقه واستدار ماشياً ببساطة. حاول عمّار أن ينقضّ عليه فلم يستطع. وجد نفسه يقف ويمضي في هدوء وراء الساحر الذي قال له دون التفات:

– لا تحاول المقاومة أيّها البائس. غيرك كثيرون حاولوا وفشلوا.

مشى الساحر في المدينة ووراءه عمّار الذي أحسّ أنّ هذا الجسد الذي يتحرّك تابعاً الساحر ليس بجسده، وكأنّما هو يراقب ما يحدث من فوق إحدى شرفات بيوت المدينة. استمرّا في المشي إلى أن وصلا إلى منزل صغير كالح، دلف إليه الساحر وقاده إلى غرفة سفليّة، مليئة بالكنوز. أشار إليها وكرّر:

– ستحضر بقيّة الكنوز إلى هنا. أتفهم؟

حاول عمّار أن يتكلم، لكنّه لم يستطع. شعر كأنّه ينظر إلى الساحر من داخل كهف. وعندما تحرّك خارجاً تابع الساحر في سخرية:

– وحاول ألّا تموت مبكراً مثل الذين سبقوك.

لم يفهم الصبيّ ما يقصده الساحر بتلك الملحوظة. مشى في

المدينة المهجورة بانتظام غريب. كان يمشي بسلاسة إلى مكان يبدو أنّه يعرفه جيّداً، بينما هي المرّة الأولى التي يأتي فيها إلى تلك المدينة.

سمع صوت الساحر في أذنيه يقول:

– ستُكمل ما بدأ به زميلك الأخير.

استمرّ في المشي إلى أن وصل إلى حانوت تناثرت الكنوز أمامه. رأى في جانبه جسداً مسجّىً وبجواره رقد جوّال. أتاه صوت الساحر:

– والآن. تقدّم إلى الجوّال ولملم بقيّة الكنوز يا فتى، وخذ حذرك.

تقدّم عمّار إلى الجوّال فأخذه. سأل نفسه ما الذي يقصده الساحر.

– انظر إلى تلال الكنوز مرّة أخرى وستدرك ما أقصد.

دقّق عمّار النظر إلى التلال، وفهم ما استغلق عليه في البداية.

فبين التلال الصغيرة، أمكنه تمييز حركات زاحفة عديدة. ثعابين.

– وعقارب أيضاً.

أتته ضحكة الساحر الساخرة وهو يكمل:

– أترى ذلك الإبريق الماسي في آخر الحانوت؟ نعم. ذلك الذي فوق التلّ الأيمن؟ أحضره.

ودّ عمّار أن يركل أيّ شيء أمامه، ولكنّه، كالعادة، لم يستطع.

– افعلها بأقصى سرعة أيّها الفتى. بينما أنا أذبح جملك لأتمتّع بلحمه الشهيّ.

الوغد!

وقع بصره على جسد الشاب المسجّى بلا حراك. وجهه أزرق وحيّات صغيرة ميتة تتعلّق بعنقه. شعر بالغثيان. حاول أن يستجمع قواه، أن يركّز من أجل الإفلات من شرك الساحر. تصبّب عرق كثيف على وجهه. حاول مرّة ثانية وثالثة ورابعة. لم يفلح أيضاً.

تقدّم من الكنوز المفروشة على الأرض، والتي تمتد في عمق الحانوت صانعة تلالاً. قدر بعد الإبريق عنه باثنتي عشرة خطوة يقضيها قفزاً. لفت نظره ثعبان كبير يسعى تحت أكوام الذهب فزفر. ليس هنالك

من طريق آخر. وجّه تركيزه ثانيةً إلى مواضع قدميه المقترحة. حسناً. سيقفز إلى تلك البقعة إلى اليمين، ثمّ.

وجد نفسه فجأة يقفز إلى المكان الذي اختاره. صار هسيس الأفاعي أكثر تركيزاً هناك. دار بعينيه فزعاً في المكان ثمّ قفز بأقصى سرعة إلى بقعة أخرى لم يميّز عندها حركة. ما إن وطئتها قدماه حتّى أحسّ بحركة تحته. قفز بيأس إلى بقعة أخرى، فأخرى، دارت في خاطره صورة الشاب الميت. الأفاعي الصغيرة المتعلقة بعنقه. لا بدّ من أن يحترس من ذلك النوع منها الذي ينطلق من داخل التلال الصغيرة قاصداً عنقه. لمح حركة مطّردة أمامه متّجهة إليه فقفز إلى بقعة أخرى. إن نجا من هذا المكان فستكون معجزة. قفز إلى البقعة التالية، فاستقرّت قدمه بين ثعبانين. ميّز جلديهما اللزج الدافئ فوق جلد قدمه. قفز دون أن تستقرّ قدمه الأخرى على الأرض. سمع صوت اصطكاك فكّ أحد الثعبانين. لم تبقَ سوى خطوة واحدة. خير له أن يركّز.

– ما أنا إلّا صبيّ صغير.

تردّدت العبارة التي قالها داخله وهو يقفز القفزة الأخيرة إلى حيث الإبريق. التقطه بسرعة وكان من حظّه أنّ تلك البقعة لا تحوي حيّات. نظر إلى الطريق أمامه وهو يلهث. لا بدّ له من الرجوع مرّة أخرى.

رجع عمّار إلى حيث أمره الساحر، فأفرغ الجوال ووضع الإبريق هناك. استدعاه الساحر إلى حيث لقيه أوّل مرة، فوجده واقفاً أمام أصيل وذلك الأخير هائج يتحرّك بجنون يمنة ويسرة. نظر إليه الساحر وقال له في غيظ مكتوم:

– هذا الجمل مسحور بشكل أو بآخر. أليس كذلك؟!

لم يجبه عمّار، ووجّه تركيزه إلى القناديل التي تنير واحته الآن، وتلك المتناثرة هنا وهناك. قال الساحر ساخراً:

– قناديل؟!! أتفكّر في القناديل؟!

ضحك ثمّ أكمل:

– فكّر في ما يحلو لك. لكنّ المهم أن تحضر لي الكنوز. هيّا. ارجع إلى الحانوت واملأ الجوال ثانيةً. تحرّك!

تركه الفتى قافلاً إلى حيث الحانوت. أخذ ينقل الذهب والمجوهرات إلى منزل الساحر حتّى كادت ذراعاه تتمزّقان من التعب، وفي كل مرّة يكاد يموت بأنياب ثعبان أو بذنب عقرب.

وما بين الذهاب والإياب، كان الساحر منهمكاً مع أصيل فلم يعد عمّار يسمع صوته يتردّد في أذنيه بينما هو في الحانوت. لم يستطع الساحر إلقاء تعاويذه على الجمل العنيد، فأخذ يفقد أعصابه شيئاً فشيئاً. أحضر عصا غليظة وأخذ يضرب أصيل بغلٍّ وهو يهتف:

– سأذبحك مهما فعلت أيّها الجمل القذر.

تحوّل الموضوع إلى مسألة تحدٍّ إذن. الساحر عنيد والجمل أعند. كلّما حاول الساحر الاقتراب منه كاد أصيل يعقره. أتي الساحر بعمّار ثانية. سأله في ثورة عارمة هذه المرّة:

– ما خطب هذا الجمل الحقير؟! ستخبرني من جعله منيعاً ضدّ السحر هكذا.

كان الساحر يولي أصيلاً ظهره، فلم يره وهو يقضم الحبل الذي يربطه بالمستقى بهدوء، لم يكن عمّار قد شدّ وثاقه على أيّ حال. لم يره وهو يتحيّن الفرصة للقفز عليه بينما هو يصرخ في وجه عمّار:

– أجب أيّها الفتى الأحمق.

لمح عمّار ما يفعله أصيل منذ البداية، لذا أخذ يفكّر في كلّ ما مرّ به في الرحلة باستغراق شديد. الغولة. الذئاب. تركه الواحة. الثعبان.

هتف الساحر في دهشة:

– هل قابلت ثعبان الصحراء العظيم. أهو من...

بتر خوار أصيل العاتي كلمات الساحر، شحب وجهه وكاد يستدير ليواجه الجمل الغاضب، لكنّه لم يفلح.

وعندما قبض أصيل بأسنانه على عنق الساحر، أحس عمّار كأنّ هنالك ثقلاً هائلاً رُفع عن صدره. هزّ رأسه الذي أضحى ثقيلاً بصعوبة وأخذ

يقبض راحتيه ويبسطهما، غامت المرئيّات في عينه للحظة خاطفة، قبل أن يشعر كأنّه يهوي في بحر بلا قرار.

– وهكذا أفلتُّ من الساحر اللعين.

قالها عمّار وهو يتجرّع آخر قطرات قدح التمر بالحليب الذي قدّمه له مضيفوه. رمق عيونهم المتّسعة في جلسة السمر التي احتوتهم وابتسم. لا توجد متعة أكثر من قصّ الحكايات. انتصب شاكراً إيّاهم على حسن ضيافتهم بعد أهوال متعدّدة صادفها في طريقه. رجوه البقاء قليلاً في قريتهم الصغيرة الجميلة ولكنّه اعتذر بأدب.

شدّ حقيبته إليه وتأهّب للخطو إلى حيث يقبع أصيل، لكنّ أحدهم بادره:

– ولكن ماذا حدث بعد إغمائك؟

– لا شيء. ركبت أصيلاً مسافة ثلاثة أيّام أخرى، وها أنا ذا.

حيّاهم ومضى. ابتسم حين تعالت أصوات بعضهم قائلةً إنّهم يشكرونه على حكاياته المسلّية وإن كانت مصطنعة ومؤلّفة. جلسات السمر تُعرف بمثل هذه الاتهامات جيّداً. لوّح لهم بعدما فكّ وثاق أصيل، فردّوا عليه التحيّة مهلّلين ضاحكين.

قرّر ألّا يركب جمله توّاً. مشى به مبتعداً عن القرية وهو مستغرق في تفكير عميق. لم يخبر ذلك السائل كلّ شيء. نعم لقد أفاق ومضى عن المدينة الملعونة وساحرها الشرّير. وصحيح أنّه ضرب في الصحراء مسافة ثلاثة أيّام حتّى وصل إلى قريتهم، لكن لم يكن هذا هو كلّ شيء.

لم يخبر السائل كيف أنّه استدار ناوياً العودة إلى واحته. وكيف أنّه بكي كثيراً في الطريق عندما غمره اشتياقه لواحته وأبيه وأمّه. عين الماء والسوق والنخيل والتبّة المفضّلة. قال في نفسه إنّه لن يكمل في هذه الرحلة التي لا يعلم نهايتها غير الله. بالفعل جعل أصيلاً يستدير، وصار يمشي في عكس الطريق الذي جاء منه، على حسب ما يتذكّره وما ميّزه من علامات الطريق والنجوم. ولكن، بعد ساعة أو بعض ساعة، توقّف

عمّار بجمله، مفكّراً في ما سيقوله أهله عنه إن عدل عن تلك الرحلة. سيخيب أملهم فيه وسيفقد أبوه زهوه بابنه النابه الشجاع. فكّر في أنّ ما يفعله سيعود بالنفع على الناس جميعاً. إذا رجع، فستظلّ الشمس مختفية، وإذا ظلّت مختفية فسيعيث أناس مثل الساحر في الأرض فساداً، هم ومسوخ متوحّشة وذئاب متحوّلة وأشياء أخرى ما تزال الأيّام طويلة لكي يراها.

وجد نفسه قد استراح بعد بعض المشي، فركب على ظهر أصيل وهو ما يزال يفكّر في تلك الساعة التي منحته أملاً جديداً وعزيمة جديدة في خوض تلك الرحلة. فكّر في ما قاله له الشيخ من انتشار وشيك للأمراض والآفات بعدما غابت الشمس. أيجبن هو عن إنقاذ أهل واحته، بل وأهل الصحراء جميعاً، من أجل نوازع أنانيّة ومخاوف لا تليق بشخص واجه مثل هذه الأهوال؟! ماذا سيواجه أكثر ممّا واجه فعلاً؟!

هكذا، عزم أمره وجعل أصيلاً يعود إلى طريقه الأصلي. سمع ساعتها خوار جمله فخُيّل إليه أنّه مبتهج برجوعه عمّا نواه.

أخذ نفساً عميقاً ووجدت ابتسامة خفيفة الطريق إلى شفتيه.

لكنّه، في اللحظة التالية مباشرة، وجد نفسه يرتجّ بعنف على ظهر أصيل الذي كان يتقافز ويحاول التملّص من شيء ما في الأسفل.

كان أصيل يغوص في الرمال. عضّ عمّار على شفتيه. إنّها الرمال المتحرّكة.

حاول التهدئة من روع أصيل، عصبيّته هذه ستجعلهما يغوصان أكثر فأكثر. لم يُجدِ ذلك مع الجمل شيئاً. لقد تملّكه الذعر وأطلق غرائزه الحيوانيّة على مداها.

– أيّها الفتى.

خفق قلبه عندما سمع هذا الصوت الذي عرف صاحبه قبل أن يرفع عينيه إليه.

لقد كان العجوز الغريب.

تأمّله الفتى وهو جالس على تلّ صغير في مواجهته، ووجهه يعكس

صفاء الدنيا وهدوءها.

تابع العجوز مبتسماً:

– يبدو أنّك تحتاج إلى المساعدة.

يغوص الجمل أكثر فأكثر.

أصبح الهواء خفيفاً فجأة وحلّق جسد عمّار في الهواء بلطف قبل أن يستقرّ على منطقة آمنة، لكنّ الجمل ما زال هناك، ويغوص أكثر فأكثر.

هتف عمّار بالعجوز:

– أرجوك أنقذ أصيلاً أيضاً.

هزّ العجوز كتفيه وهو يجيبه:

– ما أعلمه هو أنّك الوحيد المهمّ والذي يجب إنقاذه هنا.

خوار أصيل المذعور يصمّ أذنيْ الفتى. يهتف بالعجوز مرّة أخرى:

– أرجوك!

يمدّ العجوز شفتيه مجيباً:

– آسف يا فتى. أنت تعلم أنّ الأقدار يمكنها أن تكون قاسيةً في أوقات كثيرة.

عقد عمّار حاجبيه في غضب وهو يصيح:

– إذن فأنت لم تترك لي خياراً.

وبقفزة واحدة، كان عمّار في قلب الرمال المتحرّكة التي لم يعد يبرز منها غير وجه أصيل المذعور.

كان جسد عمّار يغوص، وقد بدأ الذعر يتملّكه. تبتلعه الرمال سريعاً ويبدو أنّ العجوز لن يفعل شيئاً. رفع رأسه إليه فوجده يبتسم ابتسامةً واسعة، وقبل أن ينفجر بالثورة عاجله العجوز:

– حسناً أيّها الفتى. لقد ربحت.

طار جسد أصيل في الهواء وعمّار متشبّث بظهره حتّى عبرا معاً منطقة الرمال المتحركة والجمل أخذ في تطويح قوائمه التي ما إن لمست الأرض حتّى طفق يجري في فزع بلا هُدى. وقع عمّار عن جسده ليتدحرج على الرمال. ما كاد يعتدل حتّى رأى العجوز أمامه بالضبط.

قال العجوز:
– لقد أبليت بلاءً حسناً في رحلتك أيّها الفتى الشجاع.
نفض عمّار الرمال عن ثوبه وهو يردّ:
– شكراً على إنقاذك لنا أيّها العجوز.
ثمّ استدار ليرى أين ذهب أصيل فقال العجوز:
– أنت تعلم أنّه سيعود إليك.
التفت إليه الفتى قائلاً:
– نعم ولكن...
قاطعه العجوز فجأة:
– ولا تنسَ. يجب أن تكون القمر أيّها الفتى. يجب أن تكون القمر والرياح والنجوم.
قالها ثمّ اختفي. تبخّر.
رمق عمّار حيث كان العجوز واقفاً من لحظة واحدة ثم هتف:
– كيف أيّها العجوز. كيف ومتى؟!!
ووراء هتافه الذي رنّ في أرجاء المساحة الممتدّة حوله، ساد صمت مهيب.

كان كوخ وحيد وسط الصحراء.
لفت نظره وهو يمضي في غمار رحلته العجيبة. أخذ ينظر إلى الكوخ الذي يقترب منه متعجّباً. كان مكانه غريباً حقّاً، كوخ وحيد هكذا، بلا مدينة أو قرية، والأغرب أنّه يقع على طرف جرف صخريّ عالٍ. تُرى من سيفكر في بناء بيت هنا؟ ميّز صبيّة تبدو في مثل سنّه تمشي نحو ما يبدو بئر ماء على حافة الجرف. قرّر ألّا يلتفت إلى هذا المكان الغريب وأن يمضي في طريقه.
كانت الصبيّة تشدّ حبل جرّتها من داخل البئر عندما بدا كأنّ الجرّة انحشرت في نتوء ما في الأسفل. لاحظ عمّار ذلك وهو يمرّ غير بعيد

عنها. أخذت الفتاة تشدّ الحبل بقوّة ولا جدوى. خطر لعمّار أنّها يمكن أن تسقط داخل الجرف العميق وراءها إذا ما انفكّت الجرّة فجأةً عمّا يعوقها.

وحدث ما تصوّره، لكن ليس تماماً.

فقد تزحزحت الجرة قليلاً عن مكانها، لكنّها لم تنفك. تلك الزحزحة المفاجئة التي جاءت مع الجذب الشديد للصبيّة أدّت إلى تراجعها بشدّة للحظة، ذلك التراجع كان كفيلاً بأن تفقد الفتاة توازنها، وتبدأ رحلة هبوطها إلى الأسفل.

قفز عمّار من فوق أصيل كالملسوع، عدا إلى حيث الفتاة وأدرك أنّ الجرّة ما تزال محشورة بشكل أو بآخر في أعماق البئر من الحبل المشدود منها إلى يد الفتاة المتشبّثة به في الأسفل. أدرك أنّه إن لم يساعدها الآن فستتحرّر الجرّة، وستسقط الصبيّة فعلاً.

قبض على الحبل بكلّ قوته، وأخذ يشدّه حثيثاً إليه. الصبيّة تبدو ثقيلةً بحق. ظهرت ذراعاها من حافة الجرف، اقترب منها وهو ما يزال يشدّ الحبل بيديه الاثنتين، التقط إحدى ذراعيها وجذبها بعنف مستميت. ظهر وجهها المنحني وكتفاها وصدرها إلى بقيّة الجسد وهي تدفع بقدميها نتوءات الجرف لتصعد إلى أعلى. وبجذبة عنيفة جمع عمّار فيها قوّته كلّها، كانت الصبيّة فوق السطح. وجد نفسه يسقط على ظهره نتيجة تلك الجذبة. رقد على الأرض وهو يلهث. استجمع قواه واعتدل ليساعد الصبيّة المرهقة على الوقوف. سألها وهو ينظر إلى وجهها المنحني على صدرها:

– أأنت بخير؟!

رفعت الصبيّة وجهها إليه.

اتسعت عيناه وهو ينظر إلى وجهها.

لقد كان شعرها أسود فاحماً جميلاً، وعيناها عسليتين واسعتين، وأنفها دقيقاً رهيفاً. ولكن، كان ينقص وجهها شيء مهم جدّاً.

الفم.

لقد كانت الفتاة بلا فم.

حدّق في وجهها مذهولاً. كان شكل وجهها يبدو غريباً لدرجة لا تُصدّق. ارتعشت شفتاه وهو يحاول قول أيّ شيء ولكنّه لم يفلح.

راقبت الفتاة ذهوله وقد ابتلّت عيناها بقطرات دموع تبدو متأهّبة للانفجار، ثم بدا فيهما الذعر فجأة وهي تنظر إلى شيء ما وراءه. وقبل أن يبدي أيّ ردة فعل، كانت تلك اليد الثقيلة تهوي على كتفه.

أمسكت اليد بتلابيبه وأدارته إلى صاحبها بقوّة غاشمة. وقعت عيناه على رجل قويّ البنية، تبدو على ملامحه سيماء الشراسة والقسوة. عبّرت نظرة عينيه الحادّتين عمّا يختلج في نفسه من انزعاج. كان وجهه بلا فم أيضاً.

وفي اللحظة التالية مباشرة، انتبه عمّار ليد الرجل الأخرى، التي ارتفعت في الهواء بهراوة ثقيلة. نظر إليها في يده وفزعه يزداد، لتكون حركتها المطّردة في اتجاهه هي آخر ما يراه، قبل أن يطبق عليه الظلام من كلّ اتجاه.

دخل النور إلى عينيه برفق.

ومعه كان إحساسه بشيء ثقيل يلتفّ حول رسغيه وقدميه، وأصوات متداخلة. بدأ بفتح عينيه على مهل. تبدو الرؤية مشوّشة قليلاً، وألم ثقيل يغزو رأسه.

أمامه كان يجلس الرجل القويّ البنية، والصبيّة، وسيّدة أخرى قويّة البنية أيضاً، ولم يكن غريباً عليه أن تكون بلا فم هي الأخرى. بان في عينيها هي والصبيّة قدر من الحنان والتعاطف، بينما ظهر في وجه الرجل الكثير من الجذل. لم يحتج إلى ذكاء عظيم كي يدرك أنّ تلك المرأة هي أمّ الصبيّة. ملامحهما متشابهة إلى درجة التطابق، وبالطبع هذا الرجل الضخم هو زوجها وأبو الصبيّة. أغمض عينيه وتقلّص وجهه عندما عبرت رأسه عاصفة مباغتة من الألم.

– لقد أفاق!

– نعم.

– أهلا بك أيّها الصبيّ.

سمع العبارات الثلاث وأدرك في التوّ من قالها منهم. للوهلة الأولى لم يعرف كيف ووجوههم بلا أفواه.

انطلقت ضحكة، وتبعتها كلمات الرجل:

– أمر غريب. أليس كذلك؟!!

أدرك هنا ما الذي يحدث.

لقد كان هو من نطق بعباراتهم الثلاث.

نظر إليهم وقد عاوده ذهوله فغلب شعوره بالألم، هزّ رأسه كمن يحاول الهرب من كابوس مزعج.

ثمّ جاءت كلمات المرأة:

– لا تذعر أيّها الصبيّ. كلّ شيء على ما يرام.

لقد فعلها ثانيةً! فتح فمه وتكلّم بصوت المرأة. جاءت كلمات الرجل:

– نعم. كلّ شيء على ما يرام، وسيظلّ على ما يرام ما دمت مطيعاً ولا تثير المشاكل.

مشاكل؟! كيف يثير المشاكل ويداه موثقتان خلف ظهره كما قدماه. جزّ على أسنانه وساوره شعور بالغضب أثار الألم مرّة أخرى. أطلق آهة صغيرة وودّ لو يرفع يديه إلى رأسه، لكنّه لا يستطيع. تكلّم ثانيةً بصوت المرأة في لهجة متعاطفة:

– انتظر حتّى أسقيك شيئاً يهدّئك.

ثمّ تكلّم بصوت الرجل الذي قال في جذل:

– لا تغضب منّي أيّها الصبيّ لتلك الضربة على رأسك، لقد راعيت فيها ألّا تتأذّى قدر الإمكان.

استثارته العبارة للغاية. ولِمَ يضربه أساساً؟!!

جاءته السيّدة بقدح صغير، أمسكت ذقنه وجاء صوتها عبر شفتيه:

– اثبت. أرجوك ألّا تتحرّك، هذا لن يؤذيك.

انتظرت حتّى فرغ من نطق كلماتها ثمّ مدّت يدها بالقدح لتميله فوق شفتيه. كان الألم يعتصر دماغه ففكّر أن لا بأس. لن يزداد الوضع سوءاً عن

هذا.

تجرّع المشروب من يدها وصدمه طعمه المرّ ولكنّه استمرّ في بلعه. وعندما رجعت بالقدح عبر خاطره أنّهم أحوج الناس إليه الآن، فهم لن يؤذوه أبداً. استراح لهذا الخاطر وحاول الاسترخاء في كرسيّه.

جاءته ثانيةً بلفافة من القماش وقالت عبر شفتيه:

– سأغيّر لك ذلك الجرح الصغير أيضاً.

تنبّه هنا إلى ثقل كان يحيط برأسه. فكّت عنه الضمادة السابقة وأحكمت ربط الجديدة، تكلّم بصوت الرجل الجذل:

– جميل جدّاً. ها أنت ذا تُعالَج، فلا تثُر وتغضب.

ثمّ قام وصاح في مرح عبر فم الفتى:

– الآن أستطيع سماع صوتي!

تهدّل عمّار على كرسيّه بعدما صاح بكلمات الرجل. كانت عمليّة مرهقة إلى أبعد حدّ. رمقه الرجل ثم هتف بالمرأة:

– سأخرج لأصطاد شيئاً نأكله احتفالاً بمجيء هذا الفتى إلينا.

ثمّ مضي عبر الباب مبتهجاً. تأمّل عمّار الكوخ الصغير المتواضع، قبل أن تقع عيناه على وجه الصبيّة، التي ظهر الأسف طافحاً على وجهها، ثمّ أتى صوتها الخجول المتردّد من بين شفتيه:

– أنا آسفة جدّاً. لولا حماقتي ما كنت هنا الآن.

شعر بالتعاطف نحوها، ففتح شفتيه وقال:

– لا عليك.

شعر ببعض الراحة لأنّه يستطيع التحدّث. بادرته السيّدة:

– لقد نسينا أن نشكرك على ما فعلته لابنتنا. لقد كان من الممكن أن تكون ميتة الآن لولاك.

لم يدرِ بما يردّ عليها. من السهل أن يترك العنان لغضبه، ولكنّه قدّر تعاطفها معه فصمت.

تابعت المرأة وهي تنظر لابنتها:

– سأذهب لإحضار بعض الخشب لكي نوقد ناراً لصيد أبيك. ابقي هنا

مع الفتى وأحضري له ما يطلب.

ثمّ خرجت المرأة بدورها حاملةً سلّة صغيرةً. لم يتعجّب هو من معرفتها لاسمه، هي تتكلّم عبر شفتيه. اسمه هو أسهل الأشياء إذن. كانت الصبيّة جالسة في مواجهته صامتة، فعزم هو على سؤالها:

– لِمَ أنتم بلا أفواه؟!!

أتي صوتها من بين شفتيه كالمعتاد:

– حدث هذا منذ ساعة غياب الشمس. صحونا من نومنا عاجزين عن الكلام، نظرنا في مرآتنا فهالتنا وجوههنا الخالية من الأفواه. خرجنا لنستنجد بأهل قريتنا فوجدنا أنفسنا في هذا المكان المقفر.

ضرب رأسه خاطر فقال:

– قال أبوك إنّه سيصطاد شيئاً لتأكلوه، كيف تأكلون وأنتم بلا أفواه؟!

– لدينا أفواه بلا ألسنة..

– أحقّاً؟ لا أرى أيّ فم.

رفعت زيّها إلى صدرها. رأى شقّاً طويلاً في بطنها. شقّ وراءه أسنان. ارتعش. تركت رداءها ليهبط إلى مكانه. ازدرد لعابه وسأل:

– وما سبب ذلك؟!

– كانت أمّي تبكي كثيراً وتقول إنّ هذا جزاء اعتيادنا على النميمة واغتياب الناس.

أطرقت الصبيّة برأسها خجلة، ثم أردفت:

– أقسمت أمّي ألا نفعل ذلك بعد الآن إن رجعت أفواهنا إلى وجوهنا، ولكن يبدو أنّ أوان التوبة قد مضى.

– أظنّ أنّ التوبة لا تكون بالنيّة فقط أيّتها الصبيّة. لا بدّ من أن تقرنوها بالفعل.

نظرت إليه، وجاءت كلماتها فاترة:

– لم يعد هناك أحد من البشر حولنا لنغتابه على أيّ حال.

– وأين جملي، أصيل؟

– لا تخف. إنّه مربوط في الخارج. سأطعمه أنا وأعتني به.

لم يعد هناك ما يسأل عنه، كما لم يعد لديها ما تقوله. ودونما كلمة واحدة، كانت تفتح الباب وتمضي.

كانت أصعب خمسة أيّام في حياة عمّار.

كان يتكلّم فيها بلا انقطاع، يغنّي إذا ما أراد الرجل، يبكي إذا ما أرادت المرأة، يهمس إذا ما أرادت الصبيّة. كانت قواه تخور وتُستنفد. ماتت عضلات وجهه تعباً. العزاء الوحيد أنّ الرجل نقله، بناءً على طلب الأمّ، إلى سرير إضافي في المنزل، وهكذا نجا من جلسة الكرسيّ التي يبّست له جسده في أوّل يومين. بالطبع فعلها الرجل عندما أقنعته امرأته بأنّ وضعه في مكان أكثر راحة سيفيد العائلة كلّها، باعتبار أنّ عمّار هو فمهم الوحيد.

وبعد ثلاثة أيّام أخرى في السرير، شعر بأنّه لم يعد يستطيع الصمود.

حدّث نفسه بأنّه سيهلك إن بقي على هذه الحال، وكأنّ أجزاءً من عقله تتفتّت وتتهاوى بمرور الأيّام.

حاول الرجل في الأيّام الأخيرة ذبح أصيل، لأنّه لم يعد له فائدة. الفتى سيبقى معنا إلى الأبد، ولن نذهب نحن إلى أيّ مكان. إذن، لِمَ نُبقي على الجمل، ذي اللحم الشهيّ؟!

ثار عمّار ثورة عارمة، وحاولت الصبيّة وأمّها مع الرجل لكي يعدل عمّا نواه، لكنّه أخذ سكيناً عريضة، وخرج إلى الفناء.

وكما حدث مع الساحر، فقد عاد الرجل بخفّي حُنين وهو يهتف من خلال فم عمّار:

– ما خطب هذا الجمل المجنون؟!!

كرّر الرجل المحاولة مرّات عدّة، وظلّ يفشل في كلّ مرّة.

غمر عمّاراً شعورٌ بالراحة والاطمئنان وقتها. لن يتمكّن الرجل من ذبح أصيل أبداً. ولكنّه الآن يشعر بالقلق عليه وعلى نفسه. سطعت في عقله صورة الواحة التي تنتظره. الشيخ سليمان، أمّه وأبوه، أصدقاؤه وجيرانه، كل من أحبّهم وأحبّوه، كل من لم يحبّه وصار يحسّ بحنين إليه الآن. لا

يمكن أن يخذلهم هكذا. لا بدّ له من مخرج من هذا المأزق الجهنّمي. لا بدّ.

كان وقت العشاء. جميعهم يأكلون وهو يفكّر في عمق. جاءته الصبيّة بطعامه كالمعتاد وأخذت تضعه له في فمه وهو يمضغ بطريقةٍ آليّة. نظرت إلى عينيه وانتظرت حتّى ازدرد ما في فيه لتهمس:

– ما الذي يستغرقك هكذا؟

– لا شيء.

أجابها همساً هو الآخر. أنهى ما بصحنه فمسحت الصبية فمه بمنشفة مبللة. سألته هل يودّ قضاء حاجته فأجاب أن لا. يصطحبه الرجل إلى الخلاء رابطاً عنقه بحبل غليظ لكيلا يهرب. عند هذه النقطّة تملكته رغبة عصبية في حكّ عنقه، فسألها أن تحكّها له قليلاً ففعلت. قال لها أن كفى، فقامت وهي تهمس له أن تصبح على خير. تحيّة تقليديّة فقدت معناها بغياب الشمس، ذلك الغياب الذي من المفترض أن يحلّه هو. فقط إن خرج من هذا الكوخ الكريه.

أُطفئت الشموع وساد الظلام صافياً، وهو ما يزال يفكر.

استبعد فكرة الهرب أثناء قضاء الحاجة. سيكون مربوطاً كالعادة ومهما فعل فلن يتمكن من الوصول إلى حيث أصيل. الرجل قوي كالثور وقبضته على الحبل كالفولاذ. سينخلع رأسه عن جسده قبل أن يتمكّن من أخذ خطوة إضافية، وإذا فعلها فسيستغرق وقتاً لا يُستهان به في فك وثاق أصيل، هذا الوقت سيجعل الرجل يمسك به. ماذا يفعل إذن؟! هذه هي الفرصة الوحيدة له بلا وثاق. أيهدّدهم بالتوقف عن الطعام إن لم يطلقوه؟! هم يحتاجون إليه ولن يتركوه يموت. ثمّ قال لنفسه بل سيتركونه يموت ما داموا لن يستفيدوا منه. شعر باليأس. ثقل الحبل على جسده صار أعظم ممّا كان أبداً. كان على حافة البكاء ولكنه تمالك نفسه. لا يليق بالرجل الذي أصبحه أن يبكي. ماذا سيصلح البكاء؟! لا بدّ له من التفكير لكي يجد لنفسه مخرجاً.

وبعد فترة من الزمن، خطر له خاطر ما.

هم يتمكنون من التحدّث عبر فمه. كيف يصلون إلى فمه؟ عن طريق عقله بلا شك. إذن، ما داموا يصلون إلى عقله، فلا بدّ له من الوصول إلى عقولهم. إن كانوا يستطيعون دسّ كلماتهم في عقله ليجري بها لسانه، فسيتمكن هو من دسّ كلماته في عقولهم. لا توجد أفواه لديهم، فستظلّ كلماته حبيسة عقولهم لتعذبهم بالتكرار. سيتكلم بلا هوادة ولا توقف فيطيّر عقولهم إن لم يطلقونه.

بدأ بالابتهاج. ها هو طريق يُفتح أمامه. لكنّه عاد إلى التفكير بقلق متزايد: يمكن أن تكون قدرة عقولهم أكبر من قدرة عقله. ربّما حُرموا من الفم وضُوعفت لهم قدرات العقل. استقرّ أمره على المحاولة والسلام. لا يمكنه الركون ولا الاستسلام.

أغمض عينيه وأخذ نفساً عميقاً. جعل يركّز في صورة الأب المطبوعة في ذاكرته. هو من يصرّ على إبقائه معهم. لن يستهدف أيّاً من المرأة أو الصبيّة إلى أن يرى ماذا سيفعلون. بدا كأنّ صورة الرجل تكبر أمامه. بدا كأنّه يتّجه للولوج داخل دماغه. ركّز أفكاره أكثر وبدأ بالتفكير في تلك الكلمات آلاف المرات:

– قم أيّها الرجل اللعين.

في الغرفة الداخلية، هبّ الرجل مفزوعاً من نومه وهو يضع يديه على أذنيه. أطلق صرخة عاتية أحسّها عمّار ولكنّه قاوم إطلاقها وهو ما زال يفكّر في العبارة ويكرّرها. قامت المرأة هي الأخرى بعدما أزعجها قيام زوجها المفاجئ. أخذ الرجل يتخبّط في أرجاء الغرفة وزوجته عاجزة عن الفهم. عرفت ذلك من أصوات ارتطامه بالحوائط قبل أن تشعل قنديلاً لترى ذلك بأمّ عينها. كان عمّار على فراشه يكرّر العبارة مراراً وتكراراً مقاوماً في صعوبة صرخات الرجل المتألمة. سمع هتاف الرجل داخله أن من أنت؟ من أنت؟ ضرب الرجل رأسه فجأة في الحائط فمنعه الألم من سماع الصوت للحظة خاطفة، عاد بعدها صوت عمّار الملحّ أن قم أيّها الرجل اللعين. ظلّ الرجل يصرخ أنّه قام، لكنّ العبارة ظلّت تتردّد بلا هوادة. كانت الزوجة

تراقبه فزعة قبل أن تنضمّ إليها الصبيّة. أيقظها صوت ارتطام رأس أبيها بالحائط فجاءت مستعجبة.

أدرك الرجل أنّه لا يسمع صوته ينطلق من حيث يرقد الفتى في الداخل، ثمّ تيقن في اللحظة التالية من أنّ الصوت الذي يهتف داخله هو صوت الفتى نفسه.

جرى هائجاً إلى حيث يرقد عمّار. رآه ذلك الأخير يقبل نحوه كالوحش فتملكه الفزع. قفز الرجل فوقه وأطبق على عنقه بذراعيه. شعر عمّار بالاختناق يقتله، فركز قواه في صرخة واحدة عاتية اخترقت رأس الرجل فلم يقدر غير أن يرفع يديه ليطبق بهما على أذنيه ثانية محرّراً عنق عمّار. لهث عمّار ثمّ أطلق صرخة أخرى جعلت الرجل يسقط من من فوقه متألماً إلى الأرض. أخذ عمّار في الصراخ المتتابع فتمرّغ الرجل بألم تحت أقدام زوجته وابنته. هتفت الزوجة:

– ما الذي يحدث هنا؟

وكما فهم الرجل، فهمت هي أنّ عمّار هو من يفعل ذلك بزوجها، عندما لم ينطلق صوتها من بين شفتيه.

توقف عمّار عن إطلاق الصراخ في عقل الرجل، وقال بصوت عالٍ هذه المرة:

– أطلقوني وإلّا فسأجعل حياته جحيماً.

كان يلهث والعرق يغرقه. كذلك كان الرجل. كان الموقف يائساً بالنسبة للمرأة. فتى مقيّد ورجل منهك القوى من الألم. نظر إليه الرجل وهتف أنّه لن يطلقه أبداً. كان عمّار متأكداً من أن أهله يسمعون ما يقول كما يسمعه هو بالضبط، فقد قالت له الصبيّة: ما حاجة الرجل الظالم به إلّا لسماع صوته حيّاً متجسّداً؟ وهكذا نظر إليهم عمّار صامتاً ثمّ رفع صوته قائلاً:

– إذن فقد اخترت الطريق الأصعب.

وعاد عمّار إلى الصراخ بعقل الرجل، وأخذ الرجل يتشنّج على الأرض، أمام العيون المذعورة للأم وابنتها. ظلوا على هذا الوضع فترة من الزمن.

اعتدل الرجل في أثنائها وأخذ يحاول الهجوم على الفتى، أو إلقاء الأثاث عليه، ولكنّه إمّا أن يفشل، أو أن يصمد الفتى أمام محاولاته.

كانت المرأة واقفة ولا تدري ما تفعل. هو زوجها ولكنّه ظالم وهي تعرف ذلك جيّداً، ولكن هل تتركه يتألم؟!

ربّما يقنعه ذلك بإطلاق سراح الفتى الطيّب الذي أنقذ ابنتها. ربّما.

قبضت على كتف الصبيّة التي كانت تراقب الموقف متجمّدة هي الأخرى، ومثل أمّها تمنّت أن يطلق أبوها سراح الفتى.

انتصب الرجل ووجهه يتقلص من عنف الألم. سأله عمّار مجدّداً:

– ألن تطلقني؟!

– ولا بعد مليون عام!

أجاب الرجل في عناد بغل وهو يترنّح. لم يترك للفتى أيّ خيار.

عاد عمّار للصراخ في عقل الرجل. جزء صغير منه حزين لألم الرجل ولكن عليه أن يخرج من هنا. سينكسر عناد الرجل إن عاجلاً أو آجلاً.

لم يجد الرجل أمامه سوى أن يعود لخبط رأسه في الحائط للتقليل من الألم. يعرف عمّار أنّه فكر في الجري بعيداً ولكنّه كان عنيداً كعادته. فكّر الرجل في لحظة أنّه لن يترك الكوخ للفتى لكي يهرب. وهكذا أخذ يخبط رأسه في الحائط، وكل مرّة تزداد الخبطة عنفاً لأنّ عمّار كان يصرخ في كلّ مرّة بصوت أعنف. وفي مرّة أخيرة، خبط الرجل رأسه خبطة عظيمة، فتهاوى إلى الأرض فاقداً الوعي، والدماء تسيل من جراح عميقة في جبهته..

أرجع عمّار رأسه إلى وسادته الصغيرة لاهثاً، ثمّ نظر إلى المرأة وقال لها:

– ما رأيك؟

ظلت المرأة جامدة للحظات، ثمّ تقدّمت إليه في سرعة، وأخذت تحلّ وثاقه، بينما هي تقول لابنتها عبر دماغيهما:

– اذهبي وأحضري حقيبة عمّار.

هتف الفتى بها:

– شكراً.
همست في عقله:
– لا تشكرني. أنت أنقذت ابنتي وأنا أسدّد لك دينك ليس إلّا.
فردّ عليها في إصرار:
– شكراً مرّة ثانية.
وبعد لحظات قليلة، كان عمّار جالساً على ظهر أصيل، الذي تحرّك في سعادة عصبيّة منطلقاً إلى الأمام. هتفت المرأة:
– أسرع قبل أن يفيق.
سألها قبل أن يبتعد:
– وماذا ستفعلان أنتما؟ يبدو أنّه سينكّل بكما إذا ما عرف.
ردّت الفتاة هذه المرة بصوتها الرقيق:
– لا تخف. سنتولى أمورنا.
ثمّ هتفت به:
– وها نحن قد فعلنا شيئاً يا عمّار.
لوّح لهما قبل أن تغيبا عن نظره ولوّحتا له، كان يشعر بالتعب والإرهاق وبكثير جدّاً من الارتياح.
وعندما تمثّلت صورتا الفتاة وأمّها في عقله للمرة الأخيرة، لم يبدُ وجهاهما بذات الغرابة التي عهدها قبلاً.

كان النور يأتي ساطعاً من أمامه.
لم يصدّق عينيه عندما رآه ممتدّاً بعرض الأفق.
لم يكن هذا نور قناديل. لم يكن سوى نور الشمس.
هل اقترب إلى هذا الحدّ؟!!
أغمض عينيه لما اعتراهما من ألم. أيّام طويلة وهو يعيش في ضوء النجوم الشاحب، وها هو النور يسطع في عينيه.
لكز جانب أصيل أن أسرع وهو يصرخ في فرحة جهنّمية. حتّى ولو أنّه ما زال عليه أن يقطع ضعف المسافة التي يراها حتّى خط الأفق. لقد

اقترب من هدفه. لقد اقترب من الشمس.

فهم أصيل سبب فرحة سيّده، فانطلق بأقصى سرعة عدواً نحو النور الآتي من بعيد. مرّت تفاصيل الرحلة جميعها أمام عيني عمّار، ولأول مرّة لم يشعر بالحنق أو الغضب أو الحزن. لقد شعر بالفخر. لقد خبر الأهوال ونجا. تمكّن من الصمود حتّى وصل إلى بيت الشمس ليثبت لها أنّه ما يزال هنالك خير في تلك الصحراء التي هجرتها.

أخذ أصيل يعدو، وسيّده يستحثّه كلما حاول أن يبطئ.

أخذ يعدو بلا انقطاع حتّى استبان له لمعان آخر قبل الأفق بقليل.

عقد عمّار حاجبيه مستغرباً. ما الذي يراه بالضبط؟! كان يرى بحراً، ولكنّه أحمر كالدماء. لم يوقف أصيل للحظة وهو يفكر، لا يوجد بحر في هذا الاتجاه مثلما لم يوجد بحر أحمر أبداً في أيّ اتّجاه. خطر في باله مثال النجوم والذئاب المتحوّلة وغيرهما. لم يعد وجود البحر في هذا الاتجاه، ولا لونه القاني، مصدراً للاستغراب العظيم.

وبعد مسيرة يوم كامل لم يتوقف عمّار فيه غير مرّات معدودات، وصل إلى الشاطئ. وتبيّن مصدر النور. كان حائط من الذهب يسمو إلى عنان السماء، بشكل يجعلك تظنّ أنّه لا نهاية له. يسطع بشدّة وكأنّ النور يخترقه من ورائه. لا تفسير آخر لأنّ الشمس لم تعد في السماء، ولا حتّى القمر. لا أجرام مضيئة بهذا الشكل ليعكس نورها. نظر وراءه فانبهر.

كان قادراً على رؤية حدّ النور الذي يمتدّ في السماء حتّى يتلاشى ببطء، تاركاً شظايا لامعة تذوب تدريجاً في قلب العتمة. لم يتخيّل أبداً أن يرى منظراً بهذا الجمال، وكأنّه يرى ذروة الصبح وذروة الليل معاً.

استدار عائداً إلى الشاطئ مرة أخرى. ضيّق من عينيه وهو يرمق البحر ذا اللون الغريب ينحسر برشاقة عن رمال الشاطئ، مكسباً إيّاها لونه المميَّز القويّ.

انحنى ومدّ يده لكي يلمس سطح الماء، إلّا أن صوتاً تصاعد فجأة من جواره:

– لو كنت مكانك ما فعلتها.

نظر إلى مصدر الصوت. وجد شخصاً رفيعاً للغاية، واقفاً على سطح قارب صغير، مرتدياً حرملة طويلة سوداء أخفت جسده كله، بينما يمسّد وجهه بمنديل أسود أيضاً. ذلك الوجه الأبشع ممّا يمكن أن يتخيّله إنسان.

لم يكن هنالك منذ لحظة واحدة، لو كان لرآه بلا شك.

تمالك نفسه أمام بشاعة محيّاه وسأله في نبرة هادئة:

– ولِمَ؟!

هزّ الشخص كتفيه باستهانة وقال:

– انظر.

ثمّ ألقى بالمنديل من يده إلى الماء.

ما إن لمس المنديل سطح الماء حتّى اندلعت فيه النيران. لهب أزرق عنيف التهم المنديل في لحظة. خبت النيران تاركة بقايا المنديل السوداء تتآكل في سرعة.

نظر إليه الرجل بابتسامة هادئة ولم ينبس ببنت شفة.

بقي عمّار صامتاً هو الآخر. كان يفكّر في تلك العقبة الجديدة التي برزت من العدم. بادره الرجل بعد هنيهة:

– أأنت ذاهب إلى قصر الشمس؟

أجاب عمّار في تسليم:

– نعم.

فأشار الرجل إلى قاربه وقال:

– تعال هنا أنت وجملك وهيّا بنا.

تفحّص الفتى الرجل وقاربه الصغير، وقال:

– كيف يمكن أن يحملنا هذا القارب الصغير؟

– سترى.

قالها الرجل وعيناه الدكناوان تلمعان. حدّث عمّار نفسه بأنّ شكل الرجل مريب. يبدو وحشاً أو مسخاً من نوع ما. كيف يمكنه أن يصعد إلى قاربه – على فرض اتساعه لثلاثتهم – ويكون بين شقّي الرحى؟ إن كان وحشاً فلن يستطيع الهروب منه. البحر يشتعل بالنيران.

لا بدّ له من العثور على حلّ بديل.

أجابه:

– لا. شكراً. سأتدبّر أمري.

تقلص وجه الرجل البشع عن ابتسامة وقال:

– كما تريد. ولكنّك لن تجد حلّاً آخر.

ثمّ سوّى من عباءته وأردف:

– وأنا سأكون هنا كلّ يوم في ذات الميعاد. إذا ما حدث وغيّرت رأيك.

تشاغل عمّار بالنظر إلى السور الذهبي، وأجاب بلهجة قصدها غير مكترثة:

– لن أغيّر رأيي ولكن شكراً لك.

وعندما عاد عمّار بنظره إلى الرجل لم يجده هناك. لم يندهش عمّار كثيراً. فقد اختفى الرجل مثلما ظهر.

كان الرجل – الذي عرّف نفسه لاحقاً للفتى باعتباره حارس الشاطئ – يأتي كلّ يوم ليسأل عمّار إن غيّر رأيه.

أسبوع كامل وعمّار يجيب بـ«لا»، ويفكر في ما سيفعل. كان يتأمّل السماء المنيرة أبداً طوال الأسبوع ويعتصر دماغه في محاولة لإيجاد حلّ مبتكر، ولكنّه لم يتوصّل إلى شيء، ألقى بكيس صغير من القماش إلى البحر فاحترق هو الآخر. أتى بأشياء مصنوعة من خامات متنوّعة – حتّى إنّه رمى إليه بقطع من الحجر – وكان نفس اللهب. تأكد من أن الأمر هكذا بالفعل، وليس سحراً مدبّراً من الحارس البشع الوجه. وفي اليوم الثامن، عندما نفد زاده أو كاد، أجاب الرجل بـ«نعم».

– هيّا.

قالها له الحارس وهو يقترب بقاربه ليستقرّ على الشاطئ. تقدّم عمّار مشياً وهو ممسك بلجام أصيل، الذي لدهشة الفتى لم يجفل أو يخف من الرجل. قال عمّار في تشكّك، عندما لم يفصل بينه وبين القارب غير خطوة واحدة:

– أمتأكّد أنت من أن القارب سيحتملنا؟!!

– قلت لك نعم. أسرع!

وبالفعل، عندما خطا عمّار يتبعه أصيل إلى داخل القارب، لم يبدُ ذلك الأخير صغيراً كما هُيّئ للفتى طوال الأسبوع الفائت. أخرج الحارس من طيّات عباءته كسرة خبز وقدّمها إليه قائلاً:

– كل هذه. أعرف أنّك جائع.

ثمّ وضع كسرة خبز أخرى أمام أصيل. نظر عمّار إلى كسرة الخبز الصغيرة وودّ أن يهتف بالحارس أن كيف تكفيه مثل هذه الكسرة الصغيرة، ولكنّه تذكر موضوع القارب الذي اتّسع لهم جميعاً فصمت، وشرع في قضمها.

الغريب أنّه عندما أتمّها شعر بشبع لم يعرفه منذ كان في واحته. نظر إلى أصيل فوجده لم يفرغ بعد من أكل تلك الكسرة الصغيرة. قدّم إليه الحارس قربة ماء وقال:

– أعلم أنّك عطش، فاشرب.

رفع عمّار القربة إلى شفتيه، ظلّ يشرب إلى أن ارتوى. خُيّل إليه أنّ ما شربه يتجاوز سعة القربة الصغيرة، ولكنّه لم يسأل. لم ينس الحارس أن يضع بعضاً من الماء لأصيل أيضاً.

بعدها التزم الحارس الصمت تماماً وهم يتقدّمون داخل المياه الغريبة، التي كان عمّار يلمح فيها شرراً في بعض الأحيان، من قريب أو من بعيد، نظر عمّار إلى جانب وجهه القبيح وتعجّب من طيبته الجزيلة. ساوره بعض من شك عندما تذكّر كلّ الأهوال التي مرّ بها، والتي تظاهر مسوخها – ما عدا الثعبان – بأنّهم طيّبون وأبرياء. يمكن أن يكون هذا الحارس شرّيراً مثلهم، ويكون ما قدّمه له مسموماً أو مسحوراً، مثل وجبة الغولة.

ولكنّه فكّر ثانية، المظاهر خدّاعة. هذا درس تعلمه من تلك الرحلة ووعاه جيّداً. ماذا يمنع من أن يكون وجهه بشعاً، لكن نفسه طيّبة؟

ابتسم مرتاحاً عندما وصل إلى تلك النقطة من التفكير. حدّث نفسه بأنّه حتّى لو كان شرّيراً، لم يعد هناك ما يخسره. لقد ركب معه أساساً

لأنّه لم يكن لديه حلّ آخر.

ظلّا صامتين حتّى اقتربا من شاطئ قصر الشمس. وهنا التفت الحارس إليه وقال:

– أوشكنا على الوصول. جهّز متاعك وأشياءك.

بالفعل كانت جاهزة، لأنّ عمّار لم يخرج شيئاً من حقيبته. فقط زادت ضربات قلبه وهو ينظر إلى الشاطئ الذي لم يعد يفصله عنه غير أمتار قليلة.

وعندما رسا بهم القارب، أشار له الحارس أن انزل، فنزل هو وأصيل والتفت إلى الرجل محيّياً إيّاه، فألقى له الحارس كيساً صغيراً وقال:

– ستجد هنا كسرتين من الخبز تكفيانك حتّى يحين ميعادك. وتلك قربة ماء.

قالها وهو يلقي إليه بقربة من الماء أيضاً.

كرّر عمّار:

– شكراً أيها الحارس

أكمل الحارس وكأنّه لم يسمعه:

– أوصيك بالصبر أيّها الفتى. الصبر.

– ماذا تعني؟!

– حرّاس الشمس هم من سيجدونك. لا تتعب نفسك بمحاولة الدخول. انتظرهم ولا تملّ.

أشار عمّار إلى البحر وقال:

– أنا لن أذهب إلى أيّ مكان على أيّ حال.

– يمكنك أن تذهب.

– وكيف هذا؟!!!

– سأستمرّ في الظهور هنا كلّ يوم كما اعتدت. إذا أحببت أن ترجع، قل لي فحسب.

ضحك عمّار وربّت رأس أصيل قائلاً:

– لا أيّها الحارس. لا. وأنا أعنيها هذه المرّة.

– إذن عليك بالصبر.

قالها ثمّ أعطى عمّار ظهره، وبدأ بدفع قاربه ليبحر قافلاً من حيث أتوا. داعبه الفتى قائلاً وهو يطلق ضحكة عالية:

– أنت لم تختف فجأة هذه المرّة. لعلّ المانع خير.

لم يجبه الحارس أو ينظر وراءه، بل ابتعد ترافقه أصداء ضحكة الفتى.

شهر كامل قضاه عمّار أمام سور قصر الشمس.

ولولا مرور الحارس به في كلّ يوم، لما كان قادراً على تحديد ذلك.

الأيّام كلّها متشابهة إلى حدّ مرعب. الأهوال على بشاعتها منحته هموماً قطع بها الوقت، لكنّ البقاء هنا بلا حراك هكذا كان أقسى من كلّ ما واجه في حياته.

قضى أول أسبوع متفائلاً سعيداً، وأخذ يذكّر نفسه بنصيحة الحارس، الذي كان يرده بمرح في كلّ يوم يأتي فيه ويسأله إن كان يودّ أن يرجع. أخذ يمضي وقته في تأمّل البوّابة الضخمة التي تبيّنها منذ لمست قدماه الشاطئ لأول مرّة. بوّابة مهيبة محلّاة بالرسوم والزخارف والأحجار الكريمة جميعها. كان عمّار يتحسّس نقوشها ويعجب لدقتها وملمسها البارد كالثلج. كانت لوحة البوّابة على شكل الشمس التي تشرق على الصحراء، فنرى كلّ مخلوقاتها مستبشرة سعيدة، كُلّ يفعل ما اعتاد عليه. العنز في المراعي، الخيل منطلقة وعلي ظهورها الرجال، النساء يرضعن أو يساعدن الرجال في أعمالهم، أو هنّ يعتنين بالأولاد. الأطفال يلهون. الغزلان تعدو من فكوك الأسود والذئاب. كانت لوحة أكبر ممّا يمكن أن توصف، أمضى عمّار أسبوعه الأول في تأمّلها.

وفي الأسبوع الثاني اعتراه السأم، فقد حفظ اللوحة كلها عن ظهر قلب، ثمّ تحوّل السأم إلى قلق. وفي بداية الأسبوع الثالث كان التوتّر قد بلغ منه كلّ منال، فقرّر ألّا يجلس هكذا بلا حراك.

ركب أصيل ومشى به بحذاء السور الطويل. قطع في الأسبوعين الماضيين أقصى ما يمكن لأصيل قطعه، وعمّار يرى بعد كلّ فترة بوّابة

أخرى، تُطابق مثيلتها التي رآها في البداية. حتّى الشاطئ نفسه لم تتغيّر ملامحه، وكأنّ عمّار لم يتحرّك أبداً من مكانه. يعثر عليه الحارس في كلّ يوم ويسأله ذات السؤال، وفي كلّ مرّة يردّ عمّار بأن لا.

هو لم يقطع كلّ هذه المسافة، ويواجه كلّ هذه الأهوال ليتراجع.

كان يجيب بالسلب، ثمّ يشكر الحارس الطيّب على الخبز والماء اللذين لا ينضبان. لولاه لهلك هو وجمله.

في نهاية الشهر، كان يجلس قانطاً بجوار إحدى البوابات، فسمع صوتاً غريباً، كأنّما هي عاصفة صغيرة تهبّ بصوت مكتوم. فقز واقفاً على قدميه، وكذلك فعل أصيل، ليجدا فتحتين انزاح عنهما الجدار الذهبي الشاهق.

من داخل الفتحتين برز أسدان مجنّحان ذهبيّان. تقدّما نحو عمّار في إباء وشمم، وهو مسحور لمرآهما.

كانا من حرّاس الشمس.

وقفا غير بعيد عنه وتكلّم أحدهما قائلاً:

– ماذا تريد؟!

أجاب عمّار بارتباك:

– اسمي عمّار، وأحمل على كتفيّ شامتين خضراوين. أتيت إلى هنا لمقابلة الشمس.

أجابه الآخر:

– الشمس لا تريد أن تقابل أحداً. ارجع من حيث جئت.

– ولكن...

– ارجع من حيث جئت.

– اسمعني جيّداً. لن أرجع. أهل الصحراء كلهم يعتمدون عليّ ولن أخيّب أملهم. عقدت العزم على مقابلة الشمس وسأقابلها.

كاد الأسد يردّ عليه ردّاً عنيفاً لولا أن استوقفه زميله قائلاً:

– انتظر.

ثمّ صمت برهة وكأنّه يستمع إلى صوت ما، ثمّ قال موجّهاً كلماته إلى

عمّار:

– قبل أن تقابل الشمس يجب أن تمرّ باختبار. أأنت موافق؟!

– موافق!

ما إن قالها عمّار حتّى لمح سكّيناً تطير من إحدى الفتحتين، وتقترب منه في سرعة حتّى استقرّت أمامه. تبيّن عمّار أنّها ملتهبة، وتعالى صوت الأسد الهادئ:

– أنت تعرف مثل هذا الاختبار في باديتكم. ستلعق هذه السكّين، وإن كنت سليم الطويّة فلن تتأذّى وستقابل الشمس. أمّا إن كنت خبيثاً فسوف...

بتر الأسد عبارته في هدوء، ناظراً إلى عمّار نظرة ثاقبة.

لمح عمّار مسحة من التهكّم في عينَي الأسد الآخر، فقال في تحدٍّ:

– حسناً.

ثمّ أخرج لسانه، وقرّبه في سرعة من السطح الملتهب للسكّين.

كان النور يغمر كلّ شيء.

لم يستطع الفتى فتح عينيه من شدّة البهاء، فأغمضهما محنياً رأسه، وشعور عارم بالدفء والسكينة يلفّه.

أتاه صوت رخيم للغاية قائلاً:

– مرحباً يا عمّار.

لقد كانت هي.

لقد كانت الشمس.

من لحظات قليلة فعلها ولعق السكين الحامية، وعندما لم تحرق لسانه قاده الأسدان إلى البوّابة العظيمة، التي عندما انفتحت غمره ذلك البهاء الآسر.

لم يدر بما يجيب، فقال بعدما أعيته الحيلة:

– مرحباً أيّتها الشمس.

– لقد راقبتك طوال رحلتك أيّها الفتى. رأيت كيف هزمت الشرّ ولم تتردّد في إفنائه. ذلك هو التفكير السليم. إذا ما تركت شرّاً خلفك فلا بدّ من أن يؤذي غيرك. أعجبني ذكاؤك في الردّ على الأفعى وعلى الذئاب وعلى العائلة المنزوعة الفم. كما أعجبني إيثارك أصيل عندما قفزت إليه في وسط الرمال المتحرّكة. لقد كنت شجاعاً وصبوراً.

تذكّر سأمه في الأسبوعين الأخيرين فقال:

– حسناً، لم أكن صبوراً طوال الوقت.

وهنا سمع ضحكة لم يسمع أصفى منها في حياته، ثمّ تبعها الصوت الرخيم:

– أتقصد آخر أسبوعين لك أمام السور؟ أصدقك القول: لو لم تبحث بنفسك لما بعثت لك بحرّاسي.

صمت الصوت قليلاً ثمّ عاد:

– الصبر لا يعني الاستسلام يا عمّار. الصبر هو تحمّل ما قسمه لك القدر من شرّ بلا إساءة تصرّف ليس إلّا. والفائز مَن يتمالك نفسه ويسعى لحلّ ما ألمّ به. أنت حاولت، لذا استحققت أن تنال اختباراً صغيراً ليثبت كم أنت مصمّم على الاستمرار.

– لكنّني واجهت أهوالاً ولم أتراخَ وأستسلم.

– غيرك كثيرون يستسلمون ويأسون بعد طول مجاهدة. وهذه هي أمرُّ هزيمة أيّها الفتى.

– لقد فعلت ما بوسعي فحسب.

– ولا أطلب منك غير ذلك.

– ساعدني القدر أيضاً.

– ومَن مِن الناس لم يساعده القدر؟! لا تنس أنّك ابتُليت بأهوال أيضاً!

لم يتمالك نفسه من الابتسام. ثمّ قال متحرّجاً:

– وهل يعني ذلك أنّكِ... أنّكِ ستعودين للسطوع فوق الصحراء؟!

– وما جدوى رحلتك إذن؟!!

شعر بالسعادة تسري في جسده كله، ابتهاج عظيم أمسك بزمامه

فهتف:
– شكراً أيّتها الشمس. شكراً.
ثمّ أردف:
– ومتى ستستطعين؟!
– الآن.
أيمكن أن يكون هذا حقيقة؟! أحقاً ذهبت أيّام الظلام والوحشة والكائنات الغريبة المتحوّلة؟ ردّت عليه الشمس في التوّ:
– نعم. سيعود كلّ شيء إلى ما كان عليه. ستختفي الأفعى الضخمة، والغيلان، وسيعود السكّان إلى المدينة الملعونة، وستعود الذئاب ذئاباً تخاف من النار، وستعود الأفواه إلى وجوه العائلة، وسيختفي البحر والحارس وحتّى قصري هذا فلم تعد لي حاجة به.
– أرجو منك أن تأذني لي بالعودة ما دام كلّ شيء على ما يُرام.
– أتفتقد عائلتك؟!
– جدّاً جدّاً جدّاً !
سمع الضحكة العذبة ثانية قبل أن يأتيه صوتها:
– بالطبع لك ما طلبت.
رفع عمّار يديه الاثنتين شكراً، وهمّ بالتراجع خارجاً، فجاءه الصوت:
– إلى أين؟!
ردّ متعجباً:
– إلى حيث يقبع أصيل في الخارج لأبدأ رحلة العودة.
– أنسيت كلمات العجوز لك؟!
كلمات العجوز؟! ردّد وراءها في حيرة قبل أن يسطع عقله بالإجابة. أن يكون القمر والرياح والنجوم... و...
قاطعته الشمس:
– إي نعم. أو لا تريد كونك كلّ هؤلاء؟!
– بـ... بلى !
– عندما تكون الشمس فستكون كل هؤلاء.

– أكون الشمس؟!!

– نعم. ستكون منّي وأكون منك، وستسطع معي على واحتك لترى أحبابك.

– أيعني هذا أنّني لن أعيش وسطهم بعد الآن؟

– بلى. ولكن هل تفكّر في ذلك وأنت ستصير كلّ هؤلاء؟!

– نعم. أفكّر في ذلك لأنني لم أقم برحلتي هذه إلّا من أجلهم. فإن كان ابتعادي عنهم هو ثمن كوني الرياح والقمر والنجوم وحتّى الشمس فأنا لا أريد ذلك.

– هل أنت متأكد ممّا تقول؟

– مثلما أنا متأكّد أنني أحادثك الآن.

– ألن تعود لتندم على اختيارك هذا؟!

صمت عمّار للحظة ثم أجاب:

– قد أندم لأنّني لطالما منّيت نفسي بما وعدني به العجوز، ولكنّني على ثقة بأنّ فرحتي بأهلي، وفرحتهم بي، ستنسيني أيّ ندم.

صمتت الشمس، وكذلك هو.

ثمّ أتاه صوتها في النهاية هادئاً:

– كنت أعلم أنّ هذه ستكون إجابتك.

ثمّ سطع النور كما لم يسطع من قبل.

وفجأة، شعر كأنّه يذوب ويتلاشى.

لم يعد يحسّ بقدميه ولا وسطه ولا ذراعيه، وعندما كاد يهتف لم يجد فمه.

قصّت علينا أمّي هذه القصّة في يومين، خُيّل لنا أنّنا لم ننم خلالهما. سطعت شمسان وبدران، وعندما فرغت فرغنا، ورحنا جميعاً في نوم عميق. استيقظنا على صوت عواء. كان الليل بيننا، انتفضوا جميعاً ثمّ

أخذوني من يدي إلى داخل البيت. لقد وجدونا! تصرخ أمّي وهي تقفز جارية كمراهقة في الخامسة عشرة.

التفتّ ورائي لأجد نقاطاً مشتعلة في الظلام، حال بينها وبيني الباب الذي صفقه حسن بكلّ ما يملك من قوّة، انتزعني الصوت من آخر بقايا النوم. صحونا من خيال الحكايات إلى أنياب الواقع فجأة. وقف مسنداً الباب بذراعيه وكأنّه يدفعه، تصاعدت نقرات عديدة، عديدة كأنّها شلال هادر من جميع الأرجاء، شممت رائحة لم أشمّ أنتن منها في حياتي، سعلت، سعلنا أنا وأمّي. يتسلل نور أحمر من بين خصاص النوافذ، رأيت ياسمين منكمشة فاحتضنتها دونما تفكير. يهتف بنا حسن أنّهم يدفعون الباب، يهتز الباب، تجيء كلماته كمن يجز على أسنانه. يتصاعد العواء مجدّداً، مختلطا بما يشبه القهقهات المروّعة كالعويل. ترتعش ياسمين بين ذراعيّ، لحمها الليّن يحتكّ بي، انتصبتُ، توقفَت عن الارتعاش لوهلة، لم أعرف هل هي مصدومة بسبب ما يحدث أم بما بين ساقيّ، ابتعدَت قليلاً، قليلاً جدّاً، لم تنفلت من بين ذراعيّ، ولكنّها ابتعدَت. مرّت الدقائق ثقيلة كالموت، يتعرّق حسن ويصرخ طالباً المساعدة، نهرع لنساعده، أدفع الباب بكلّ ما يمكنني من قوّة، بكلّ ما يمكننا من قوّة. بقينا هكذا حتّى الخيط الأبيض في السماء. حينها، فجأة، توقف كلّ شيء. اختبأنا في البيت ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ جاؤونا فيها، حتّى بدأ قرنا القمر بالاختفاء، هكذا تخبرنا أمّي.

في الليلة الثالثة تهالكنا جالسين، ينقط منا العرق، تؤلمنا أذرعتنا وأفخاذنا، حتّى أمّي ساعدتنا بقوّتها الضئيلة. تركنا أنفسنا لنتهاوى على الأرض.

تعبت، لقد تعبت. يهمس حسن. كلنا تعبنا، تقول أمّي. اسمعي يا سيّدتي، لا أريد أن أكون الشمس، ولا أريد أن أكون العملاق، أريد أن أكون حسن الذي أعرف، أريد حياتي، أريد حياتي. وأنا أيضاً. لا أريد أنا هذا الوجه، ولا هذا الجسد، غريبة به وغريبة فيه، لا أريده، تقول ياسمين. ولا أنا أريد أن أكون إنسيّة، ولا أنا. تعبت أنا الأخرى.

لم أفهم، وجدت نفسي أقول:

كيف تقولون ذلك؟! كيف ترفض قوّتك يا حسن، وكيف ترفضين جمالك يا ياسمين، وكيف ترفضين لسانك المتكلم يا أمّاه؟

لا أريد أن أعيش منتظرة الموت، أو أسوأ، التشوّش والجنون، لا أريد أن أعيش بهذه الأفكار، لم أكن أريد أن أكون إنسيّة، لكن غشيني الشباب، وحبّي لك، الآن أريد بعضاً من الرحمة، أن أعيش ليومي، كلّ ما تستلزمه سعادتي هو الأكل والنوم والدفء، لا أفكار، لا قلق. ردّت عليّ أمّي.

لقد مضى القطار، لا سبيل لإيقافه. قلت بتصميم. أنت مخطئ.. أنت مخطئ. هتفت بي.

ربّما كانت هذه العبارة الوحيدة التي علا بها الصوت، كنّا جميعاً نتكلم بتعب، كلام هو أقرب للهمس على كلّ ما حمله. تهاوينا مرّة أخرى.

أفقنا، وعندما أفقنا، ربّما لم نكن كسابق عهدنا. انهمكت أنا في مساعدة ياسمين. علّمتني جمع الخضروات ومساعدتها في حياكة ملابس جديدة لشتاء جديد. وصنع لنا حسن سريراً لنرقد عليه أنا وأمّي، التي انهمكت في أكل كلّ شيء يصطاده حسن وهو ما يزال في دمه. في الليل أسمع أصوات قيئها، وأحسّ بأنفاسها الثقيلة وترنّحها أمام الفراش. في يوم انتحبت صامتة. كانت تجاهد ألّا أسمع، ولكنّني سمعت، وتظاهرت بأنّني لم أسمع. كانت ياسمين تمحو آثار قيئها وتتظاهر بأنّها لم تفعل، بالضبط حين آتيها في قلب الليل. تسللت في المرة الأولى في ظلام البيت، اعتادت عيناي الظلام وصرت أراها راقدة على البساط. لم تعد تنام في سرير حسن، ولم يصنع لها هذا الأخير سريراً، مددت يدي أتحسّسها، أمسك بثدييها، أميل بوجهي لأقبّل وجهها، تتأوّه في رقادها، تتظاهر بالنوم، ولكنّني أعرف أنّها صاحية، أعرف حين تفتح فخذيها قليلاً لألج بينهما. أفرغ وأعود إلى حيث رقادي. ربّما لاحظت أمّي ولم تقل شيئاً، هي الأخرى.

في ليلة كفّت ياسمين عن التظاهر، قبّلتني، داعبتني، وفي النهار، بينما أنا أستخرج الماء من البئر، جاءت ووقفت متأمّلة الأعماق.

أتعلم لمَ أحبّ هذا البيت؟! قالت لي، في نبرة بدت كأنها مسرنمة.

لِمَ؟!

لأنّه ليس فيه مرايا...

لا يمكنني تحديد الزمن بالضبط، ولكن استطال شعري وتجعّدت لحيتي، ومرّت بنا كثير من الأهلّة، وعند كلّ هلال كنّا نسمع صوت نقرات الجداء، ازدادت قوّتها أكثر فأكثر، صرخ بنا حسن أنّنا لن نستطيع هزيمتها في المرّة المقبلة، كان يقف أمام البيت، كان يشذّب رمحاً ما، داخلتني الأفكار المرتابة أنّه يريد قتلي به، قبل أن يكسره فوق فخذيه ويصرخ بغضب ليطوّح بالخشب الثقيل على مدى ذراعيه. ربّما كنت محقاً في أن أتجنّب الذهاب للصيد معه، لا أعلم ما داخله من أفكار، ربّما هو يعلم، ولم يقل أيضاً.

انطلق فجأة جرياً في الصحراء الشاسعة، وسرعان ما تحوّل إلى نقطة في الأفق. نظرت إلينا ياسمين بهلع.

لا تقلقي، سيعود. قالت أمّي بهدوء.

لم تعلم أنّني كنت أسمع صوت نحيبها في الليل، هكذا كان يمكنها التظاهر بالهدوء. في الليل كانت تتقيّأ مرّة أخرى، جاءت إلى فراشي وتظاهرت بالنوم، وربّما تظاهرت هي بإيقاظي. حمل إليّ صوتها رائحة معدتها.

اسمع ما سأقوله لك جيّداً. همست.

كنت ألبس ملابس نظيفة، وكذلك ياسمين، حلقت لحيتي وشذّبت شعري بعد حمّام طويل، تبدو ياسمين في كامل بهائها، بينما لا أعلم أنا، فلا توجد مرايا. انحنى حسن وحملنا، كلّ على كتف. كان الاتفاق أن ينزلنا على حافة المدينة، البدر في السماء، وظلمة الليل ستخفي الجلبة

التي سيحدثها. في جيبي النقود التي لم يصرفها حسن وياسمين، لا بدّ من أن ننزل إلى المدينة، وأن نرجع إلى نفس البقعة التي سيتركنا فيها حسن في الليلة التالية، لا يمكننا الوصول وحدنا، الهلال المقبل سيحمل في طيّاته فناءنا، كما قالت أمّي.

كانت الريح تضرب وجوهنا وحسن يعدو، لن تكون المسافة طويلة. كان يتعيّن علينا، أنا وياسمين، إيجاد رشدي، الرجل ذي العينين اللوزيتين الذي سكنا في بيته، ياسمين ستدلّني عليه وسيثق بي في وجودها. سألتنا ياسمين بقلق إن كانت ملامحها تغيّرت منذ جئنا. أقول لها لا، وأنا أتفرّس في وجهها الجميل، وعندما أنتزع عينيّ من وجهها تقابلني نظرة حسن الغاضبة إليّ. سألت أمّي ما الذي يجعلك متأكّدة هكذا من أنّه سيساعدنا، ردّت بأنّها متأكدة مثلما كانت تعرف حكاية حسن وياسمين، متأكدة لأنها كانت تعلم أنّني أفشيت السرّ. صمتّ. تابعت، متشجّعة بصمتي، أنّ لديه ما سيجعلهم يرجعون إلى حالهم التي كانت. تعبت هي من أكل اللحم النيء، لم يُجدِ نفعاً معها. تستيقظ كلّ يوم لتجد يدها وإبهامها الإنسيّ. كنت أريد أن أدخن، كنت أريد أن أثمل، بالطبع وافقت.

تركنا على حافة المدينة، كانت الساعة الواحدة صباحاً تقريباً، لوّح بيديه مودّعاً. قال إنّه يثق بنا، لا بدّ من أن نرجع.

داخلتني فكرة مزعجة أنّه يبقي على حياتي فقط من أجل هذا، ربّما لو لم تقترح أمّي ما اقترحته لكنت جثة في أعماق الأرض الآن. أعرف ما يعتمل في صدره جيّداً، أعرفه. سأعود بهذا الشيء، وساعتها سيكون إنسيّاً عاديّاً، ساعتها لن يمكنه أن يفوقني قوّة كما الآن. الآن ماذا؟! تسألني ياسمين. سنمضي إلى هذا الطريق السريع، سنجد تاكسي. معك العنوان، أليس كذلك؟ بلى. حسناً إذن.

مشينا إلى حيث الطريق. تأمّلتها. وصلنا وأشرنا لأول تاكسي عبر بنا، قالت له العنوان. وافق، كلهم يوافقون في هذه الساعة من الليل. سألته عن العدّاد فقال إنّه لا يعمل، قضينا دقائق سريعة في الاتفاق على أجر مناسب، ورزمتين من النقود في جيبي تطمئنانني. لا يمكنني الرفض

الآن، يمكنني التظاهر بالرفض. اتفقنا وانطلق في طريقه. أخرج علبة سجائر، سألني إن كنت أدخّن، قلت بالطبع، بالطبع. نظر في المرآة وسأل إن كانت الأستاذة الأجنبية تدخّن، قلت لا. نظرت لها نظرة فهمتها. ظلّ ينظر إلى ست الحسن الجالسة بجواري في مرآته العاكسة، بينما تعلق عينيها بالمرآة هي الأخرى. لم تكن تنظر إليه؛ كانت تنظر إلى وجهها، أو إلى الوجه الذي صارت تحمله. بدأت الأفكار المزعجة تجد طريقها إلى دماغي. ماذا إن حدّثته نفسه بفعل شيء؟! توتّرت عضلاتي قليلاً. بدأ بالشكوى من كلّ شيء، وبدأت بالردّ عليه بكلّ التفاؤل الكاذب كعادتي مع كلّ سائقي التاكسيات. ظللت هكذا ونحن نتوغّل في المدينة التي لا تنام. طمأنت نفسي؛ لو كان ينوي فعل شيء لفعله ونحن في قفر الطريق السريع. جعلته يتوقف أمام كشك في طريقنا، ابتعت علبة سجائر، وشعرت برغبة في المياه الغازية، مضى وقت طويل. سألت ياسمين فوافقت، تملّكني كرم مفاجئ فأحضرت للسائق واحدة أيضاً، شكرني. أحسست بالدوار المعتاد لتدخيني السجائر بعد توقف. سعلت وسعلت، التفت السائق للوراء متسائلاً، أشرت بذراعي أن لا بأس.

دخلنا في شوارع المنطقة التي يسكن فيها رشدي، سأل السائق بعض المارّة عن الطريق للحارة المنشودة، بعد قليل من التوهان، وكثير من السجائر التي دخّنتها كعطشان للماء، توقفنا أمام مدخل الحارة، اعتذر لي السائق عن الدخول، تفهّمت ذلك ونقدته ما اتفقنا عليه. كان الطريق الضيّق الذي تتفرّع منه الحارة صاحياً، مليئاً بالنور كأنّها الواحدة ظهراً، على مقربة منّا مقهى جلس روّاده متأمّلين ياسمين بجوع، هكذا فعل كلّ من كان في الشارع، لا بدّ لي من الحذر، سواء من المتحرّشين أو من الذئاب والجداء والضباع، لا يوجد أسود في هذه المدينة، ولكن، هل يمكنك الوثوق بالأسود؟!

قلت لياسمين هيّا خذيني إلى حيث البيت. خطت بجواري بوجل، تجاوزنا العيون المندهشة، ودلفنا إلى الحارة. كان النور داخلها أقلّ منه

في الشارع المتألق خارجها، ولكنّه كان كافياً لتبيّن ما حولنا. قادتني عبر الحارة التي كانت مبانيها تميل لليمين قليلاً إلى بيت جديد، لم يكن هناك سوى صبيّين جالسين على مقدّمة عربة، ناظرين لنا باستغراب وفضول، وعلى مسافة أبعد، كان هناك من يقعي بجوار منزل ما حاملاً ورقة فيها طعام يزدرده بسرعة. مجذوب في ما يبدو، منتصف رأسه أصلع، ولكنّ جانبيه طويلا الشعر، حافي القدمين، يرتدي جلباباً قذراً وله لحية طويلة، جاءتني فكرة. أمسكت بيد ياسمين واقتربت منه، لم تفهم، سألتني بقلق عمّا أنا فاعل. لا تقلقي. توجّهت للمجذوب الذي أجفل من اقترابنا منه: اسمع، أعرف أنّك ترى القطط التي تتحوّل إلى نساء جميلات، وترى النساء الجميلات اللواتي يتحوّلن إلى قطط. توقف عن الابتسام ونظر إليّ في دهشة. لا تخف، أنا صديق لك، أريد خدمة صغيرة، في هذه الحارة يوجد رجل يُدعى رشدي، أتعرفه؟ هز رأسه بتوكيد، وأنا أكاد أشعر بدهشة الصبيّين من كلامي مع مجذوب. نحن سنزوره الآن، أتعلم عن الجداء؟! انتفض وفغر فاه عن فم له أسنان صفراء قليلة، هدّأته، قلت لك إنّني صديق، فقط لو رأيتهم، ازعق بصوت عالٍ، قل يا رشدي، سنسمعك. افعل هذا وسأعطيك مبلغاً مجزياً. قام من مكانه ومشى أمامنا الأمتار القليلة في اتزان، وكأنّه جنرال يقود جيشه في مسيرة للنصر عبر أرجاء حاضرته. أقعى أمام باب بناية رشدي وهو يهز رأسه لي مطمئناً.

كنّا نقف أمام الباب بتوتّر، وقد قرعنا جرس الباب قبل لحظة. من؟؟! يتصاعد صوت امرأة رشدي من الداخل. أنا ياسمين يا خالة. من كنت أقيم في شقتكم بالأسفل. يجيبها صوت ياسمين.

تفتح المرأة الباب في توجّس، يظهر وجهها جميلاً قسيماً من وراء فرجة الباب. أهلاً يا ست ياسمين، ما الذي أحضرك في هذه الساعة؟! نريد الأستاذ رشدي في أمر هام. هذا ابن خالتي. تنظر إلينا المرأة في استغراب. في هذا الوقت؟ قالت. آسفان، لكن الأمر عاجل. قلت في نبرة

معتذرة. رشدي مريض جداً، لا يمكنه رؤية أحد، لقد تركه الطبيب قبل ساعات. أرجوك يا حاجّة. فقط أخبريه أنّني بالباب.

تتردّد المرأة، تقول لنا أن ننتظر. تغلق الباب. لحظات وينفتح ثانية، تقودنا للداخل، وهي ترجونا ألّا نرهقه. عبر الردهة الصغيرة كنت أرى ولده الصغير نائماً على أريكة صغيرة. مشينا في الطرقة إلى حيث بابه. دخلت ياسمين أولاً، ثمّ تبعتها.

كان كما وصفاه، وإن كان مريضاً، ناحلاً، بلحية نابتة، راقداً على سريره، نظر إلينا وهو يسأل ياسمين بهدوء عن سبب زيارتها. هل حسن بخير؟ قبل أن نردّ، توجّه لي بإغلاق الباب. تحدّث لي باعتيادية وكأنّه يعرفني من زمن. أغلقت الباب. جلسنا على كرسيّين مقابلين لفراشه. نظر إلى ياسمين صامتاً، قالت له إنّني أريد منه شيئاً. اتّجه بنظره إليّ. قلت له إنّني في حاجة لأن أحكي له حكاية قصيرة، إن سمح لي. هز رأسه بهدوء، هكذا، وحكيت له كلّ شيء.

كان يسمعني بلا تعابير، بوجه جامد كالصخر. وعندما أنهيت، زفر زفرة طويلة عميقة، تردّدت في لحظة إن كانت زفرة ضيق أم زفرة ارتياح. لان وجهه وعلت شفتيه ابتسامة شاحبة. قال لياسمين أن تقترب من سريره، أرشدها إلى مفتاح تحت فراشه. أشار إلى خزينة صغيرة موضوعة على الأرض بجانب السرير، لم ألحظها قبلاً، وقال لها أن تفتحها.

دقت زوجته على الباب، هتفت بنا أنّ الرجل متعب. رفع رشدي عقيرته مخبراً إيّاها أنّه بخير، دعيهما وشأنهما. بدا أنّ رفع صوته أرهقه. اعتذرت له، هز رأسه بأنّه لا داعي. كانت ياسمين تخرج كيساً أسود من الخزينة. قال لها ألّا تفتحه. نظر لي وقال إنه ما أحتاج إليه. ما هو؟! هو شيء منحني إيّاه أبي، ورثه عن أبيه، ويجب أنا أن أورثه لابني، هل رأيته؟ آدم الصغير؟ هززت رأسي بأن نعم. شرد ببصره وقال إنّه ظنّ أنّه لن ينجب أبداً، ولكن، قبل سنوات سبع، رُزق بآدم. كان يفكّر في أنّ ابنه سيرث ما أورثه إيّاه أبوه، وكان هذا يضايقه، صمت. صمت أنا أيضاً. تحدّث

ثانية، كان يظنّ أيضاً أنّه سيموت الآن بلا حلّ لهذه المسألة، لكنّه الآن سعيد، سيذهب هذا الشيء بعيداً. نظر إليّ وإلى ياسمين، قال لنا ألّا نفتح الكيس أبداً. كيف سيحلّ هذا مشكلة أمّي؟ فقط بحيازتها إيّاه، أجابني رشدي. كنت أستمع إليه، وأحاول أن أطبّق نظرية أمّي، أيّ حيوان انحدر منه صاحب العينين اللوزيّتين. عجزت عن التحديد. نظر إلى الساعة أمامه وقال: يجب عليكما الرحيل. سيعرفون أنّكما هنا، ولن يرحموكما. لم يرحما أبي أو أصدقاءه. هيّا، ولتصحبكما السلامة.

شكرناه وانتصبنا واقفين، تناولت الكيس من ياسمين، حاولت تحديد ماهيّته بكفيّ، بدا كأنّه تمثال أو قطعة كبيرة من الحجر. فتحنا الباب وشكرنا امرأته واعتذرنا لها. نزلنا فوق درجات السلم، وما إن خرجنا، وما إن نقدت المجذوب وريقتين رقص لهما فرحاً، حتّى سمعنا عويل امرأة رشدي. نظر بعضنا إلى بعض، ثمّ أسرعنا الخطى خارجين من الحارة، دون أن ننظر وراءنا.

خطرت لي فكرة، واستبدّ بي الشوق، ونحن في شرفة تطلّ على القاهرة، وأمامي زجاجتان فارغتان من البيرة، وأنا أجرع من الثالثة. كان تلفوني موصولاً بالكهرباء، راقداً على منضدتنا هو والكيس الأسود، وكانت ياسمين مستندة إلى السور، وكأنّها نائمة. نظر إليها النادل قبل قليل بتساؤل حذر، وقلت له بنبرة واثقة إنّها متعبة قليلاً. وضع الزجاجة وذهب.

أنا آسف، أوحشتني البيرة، أقول. لا عليك، تردّ. كنتِ سعيدة جداً ونحن في الطريق، تبدين متعبة الآن. نعم، لا أدري ما الذي حلّ بي. لا عليك. الآن ماذا سنفعل؟ كنت آمل أن أسأل رشدي أن نبقى في بيته هذه الليلة، ولكنّه كان يعرف ماذا سيحلّ به. لا تقلقي، أعرف أين سنقضي الليلة. أين؟ في بيت صديقة لأمّي، أنا متأكّد من أنّها ستدعنا هذه الليلة. حسناً، إن كنت متأكداً. أنا متأكد.

هزت رأسها بضعف، ونظرت إلى المشهد أمامها. نظرت أنا أيضاً. فاجأني أنّني لم أشتَق للغابة الإسمنتية، لم أكن أظنّ أبداً أنّ بإمكاني الابتعاد عنها طويلاً. كنت أظنّ نفسي دوماً ابناً للمدينة، لم أتخيّل البعد عنها سوى لأيّام معدودة. كانت البيرة والسجائر هي كلّ ما اشتقت إليه. التقطت سيجارة من العلبة الثانية في ساعات قليلة. ندّت أنّة من ياسمين، نظرت إليها. وجدت وجهها متغضّناً. ما بك؟! أشعر بالغثيان. عن إذنك. قامت مسرعة إلى حيث الحمّام. تبعتها بعينيّ. برق في ذهني شيء.

عندما عادت، كنت قد نقدت النادل حسابه، مستعدّاً للذهاب، التلفون في جيبي والكيس في يدي. لم تسأل إلى أين، كانت مرهقة جدّاً، حدّثتني نفسي بأنّ شيئاً في هيئتها مختلف. في المصعد أدركت ما هو، وهي تنظر إليّ في ضعف؛ كانت عيناها بنّيتين.

فتحت لنا ليلى الباب، نظرت إليّ وإلى ياسمين بدهشة.

سألتني ما الذي جرى؟ لقد اختفيت منذ أسابيع. لم تسألني عن ياسمين، وقدّرت لها ذلك. قادتنا إلى الداخل. كنت أعرف أنّني أعرّض نفسي للخطر بأن أدخل إلى جحر حيّة، لكن لم يكن لديّ مكان آخر ألجأ إليه. قلت لها إنّنا نحتاج إلى المبيت هذه الليلة. قالت لي، في ما أحسست كونه تبرّماً، ما الذي يمنعني من الذهاب إلى بيتي. أبوك وأخوك يبحثان عنك. تجاوزت النذالة المضمرة في السؤال، وقلت لها لهذه الليلة فقط. نظرت إليّ وإلى ياسمين، كانت لا تزال تشعر بالتوعّك. سألت أهي بخير؟ بلى، بلى، هي بخير. نظرت إليّ وسألتني بذات النبرة، هل أنت بخير؟! كنت متوتّراً. عينا ياسمين بنّيتان. لن يمضي وقت طويل قبل أن ترجع هذه الفتاة إلى صورتها الأصلية. سأفقد ستّ الحسن، سأفقدها للأبد. طمأنت ليلى وقلت إنّني بخير. لا تقلقي. هل لنا بالنوم الآن؟ تنهّدت وقالت طبعاً. قادتنا إلى حجرة شاغرة. نظرت إلينا وقالت إن احتجتما إلى

شيء فلا تتردّدا. قالت لياسمين بدفء أن ألف سلامة عليها. ردّت عليها ياسمين بصوت خفيض أن شكراً. نظرت إلى الكيس الاسود بين يديّ في فضول، ثمّ مضت.

وعندما أغلق الباب، قالت لي ياسمين أن أسرع في النوم؛ ليس لدينا وقت طويل، يمكننا الرجوع في النهار، لديك تلفونك، هاتف أمّك وقل لها إنّنا راجعون. لقد فرغت منه الكهرباء. اسمعي يا ياسمين. نعم؟ لن نعود. ماذا تقصد؟! أقصد أنّنا لن نعود. ماذا؟! وحسن؟ وأمّك؟ أنتِ حامل يا ياسمين. حامل؟! نعم أنتِ حامل، ما سبب هذا الضعف والغثيان في رأيك؟! لقد جُننت. لا، لم أجنّ، هذا هو عين العقل. أيّ عقل؟!

العقل الذي يقول لي إنّ هناك من سيذهب إلى أمّي وإلى حسن، سيكون هناك العديد من الناس مثلك ومثله، سيحتمي بعضهم ببعض وسينشئون مدينة جديدة تتحدّى البرّية، مثلما فعل أجدادهم، لا تخافي عليهم. سيموتون أيّها الأحمق. لن يموتوا، وعليك أن تعرفي، أمّي كانت تدري بحملك، وهي من ابتعثتنا إلى هنا، نعم، هي من اتّخذت هذا القرار، هي تريد لي السعادة. وحسن؟! حسن؟ ماذا عنه؟ هو قويّ ويستطيع الدفاع عن نفسه، قلت لك بالتأكيد لن يبقوا وحيدين، اسمعي، سألقي بهذا الشيء بعيداً، ستبقين بجمالك وبهائك، ستورثينني ابناً يحمل ملامحنا، سنصنع معاً حياة جديدة سعيدة. أنت مجنون! ما الذي أدراك أنني أريد ذلك؟ أريد أن أرجع ياسمين التي أعرفها، كما يريد حسن أن يعود حسناً الذي عهده، وأمّك، أمّك تريد أن تعود قطّة. أنتِ قد قلتِها، تريد أن تعود قطّة، من هو المجنون الذي يريد العودة إلى حياة القطط؟ أتظنّين أنّها مجنونة؟ لا، هي ليست بمجنونة، كما قلت لك، هي تعلم كلّ شيء، هي تعلم كلّ شيء، ومن أجل ذلك ضحّت بنفسها وبحسن من أجلنا.

كنت أقول ذلك وأنا أحاول الاقتراب منها، هي تصرخ وتدفعني، كنت أحاول تقبيلها عندما انفتح الباب، وسمعت فحيح ليلى: ما الذي تفعله بها

أيّها المجنون؟ لا شأن لك بما يجري! سوف أتّصل بأبيك وأخيك، لا بدّ من أن يجدا حلّاً لجنونك هذا.

منحتني ظهرها وعدت، وهذه كانت غلطتها. امتدت يديّ إلى فازة بجواري، وعدوت وراءها. وعندما سقطت على الأرض، لمحت ياسمين، التي استعادت قوّتها بطريقة مفاجئة، تحمل الكيس الأسود بين ذراعيها وتعدو، تفتح باب الشقة وتعدو، انطلقت وراءها.

ياسمين.. انتظري أيّتها المجنونة! أصرخ بغضب.

عدونا وعدونا، لم يبدُ أنّها تعبت، ولا أنا. عبرنا بمباني القاهرة الجديدة القديمة، قطعت الشوارع الواسعة والضيّقة برشاقة غزال، عبرت إلى الميدان الواسع وأنا وراءها، نظر إلينا بعض أفراد البوليس بدهشة، تصاعدت صيحات، لم أبال. إن رآنا الجداء فستكون كارثة، يا أيّتها الغبيّة. توقفي، توقفي! أكملت إلى الكوبري، وأنا في أعقابها، ينظر إلينا الناس المتسامرون بدهشة، كان رصيف الكوبري ممتلئاً على تأخّر الساعة. أصابها الوهن في منتصف الطريق. خارت قواها. يقترب منها بعض الناس، جاهدت حتّى أصل، كان الكيس يسقط من بين يديها نحو الأرض. رأيت هؤلاء الناس عن قرب. رأيتهم، وعرفتهم. إنّهم هم، هتفت بها. التفّ بعضهم حولها والتفّ بعضهم حولي مكبّلين حركتي، ومن بينهم رأيت أحدهم يفغر فاه، هذه الأسنان، هذه الأسنان. صرخت إنّه قرش. إنّه قرش. هوى بأسنانه على عنق ياسمين التي صرخت. تناثرت الدماء كشلال. تملأ الدموع عينيّ. يتحوّل الجميع أمام عينيّ، يرجعون إلى حالهم الأولى، يقفز بعضهم في الماء وبينهم القرش القاتل، يجري بعضهم مبتعدين. يعقر بعضهم بعضاً. تتصاعد الصرخات والعويل. أزحف إلى حيث جثة ياسمين المشطورة وأنا أنوح وسط كلّ هذا الجنون. يتجمّع بعضهم على بعض. تمتدّ إلى أنيابهم وأظافرهم.

وضعني البوم في المصحّة لأسابيع. قالوا لي إنهم عثروا عليَّ فوق الكوبري حاملاً جثّة أمّي. كانت على حق. قالت لي إنّهم سيصنعون منّي مجنوناً. أجبروني على تناول أدوية كثيرة، بعد فترة من الزمن لم أعتقد أنّهم كلهم من البوم، ولكنّني يجب أن أكون حذراً. أخبرني أخي أنّ السيدة ليلى قد تنازلت عن المحضر الذي حرّرته ضدّي، ولكنّها لم تجئ لرؤيتي. قلت له إنّها تغار. لم يردّ عليّ. لم يذكر شيئاً عن جنازة أو دفن. بعد فترة أخرى اصطحبوني إلى البيت. كان أبي يحضر لي الطعام في البداية، يتأبّط ذراعي ويمشي بي في شوارع الحيّ، يجلس معي في المقهى وعيناه مثبّتتان عليّ بإحكام. يسلّم عليه بعض الناس ويرمونني بنظرات مشفقة. فعل ذلك لأسبوعين ثمّ كفّ. بعد زيارتي الأخيرة للطبيب، بدأت بخدمة نفسي بنفسي. لم يزرني أحد، ولم يهاتفني أحد. لم أبالِ. كنت حذراً ولم أنبس ببنت شفة عمّا حدث. كنت أجيب عن جميع أسئلتهم بأنّني لا أتذكّر. هم في كلّ مكان، وأنا محظوظ أنّهم قد تركوني حيّاً. قلت لأبي إنّني أريد اقتناء كلبة. وافق بعد تردّد، خاصّة عندما استحسن طبيبي هذا. أخبرهم أنّ الأمر ربّما يكون مفيداً لحالتي النفسيّة.

ترك لي أبي مكانه في الشرفة، أجلس تحت الشمس، مانحاً الكلبة الجميلة لحماً مشويّاً، وأحلم باليوم الذي ستتحوّل فيه إلى شقراء جميلة، ذات عينين زرقاوين.